

رسالة إلى ولدي

من تصاحب؟!

الراسل

أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي



First Day Of Issue

دار الإيمان
الإسكندرية

دار القمة
الإسكندرية




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رسالة إلى ولدي

من تصاحب؟

رسالة إلى ولدي

من تصاحب؟

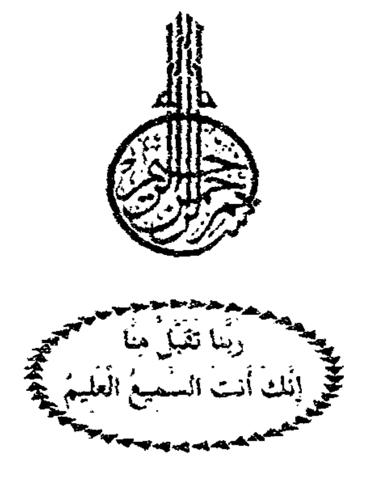
المرسل

أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه



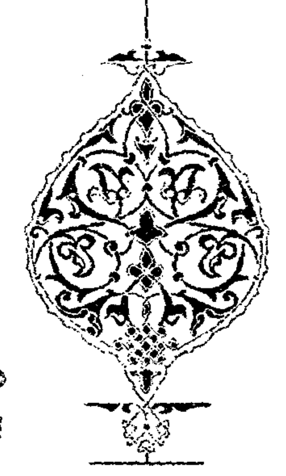




الطبعة الأولى
٢٠١٠

رقم الإيداع
١٥٢٠٤ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولي
977/331/457/x



دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠ - ٠٢ - ٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إِنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ، ونَستَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِي، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

أَمَّا بَعْدُ،

فَهَذِهِ رِسَالَةٌ بِعُنْوَانِ: «مَنْ تُصَاحِبُ؟» ، كَتَبْتُهَا لأَحَدِ أَبْنَائِي تَذْكِيراً لَهُ، وَإِيجَاباً لِحَقِّهِ، ضَمَّنْتُ ذَلِكَ طَرَفاً مِنَ الحُجَجِ الْبَالِغَةِ، وَالأَخْبَارِ الشَّائِعَةِ، وَالأَبْيَاتِ الرَّائِقَةِ؛ لِيَجِدَ فِي فَهْمِهَا مُسَاعَفَةً،وَفِي التَّحَلِّي بِالآدَابِ مُكَانَفَةً(١).

وَإِنِّي لَمَّا وَجَدْتُ الثَّمَرَةَ مُضَاعَفَةً ، رَأَيْتُ أَنْ يُشَارِكَهُ

(١) كَانَفَهُ مُكَانَفَةً : عَاوَنَهُ (اللسان : كَنَف) .



إِخْوَانُهُ غُنْمَها، وَعَلَيْنَا غُرْمُهَا؛ فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: «خَيْرُ الْعِلْمِ مَا حُوضِرَ بِهِ»(١).

أَيْ: أَنْفَعُ الْعِلْمِ مَا حَضَرَ وَقْتَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَكَانَ بَدِيهَةً كَمَا قَالَ الحُطَيْئَةُ:

فَهَذَا بَدِيهٌ لا كَتَخْيِيرِ قَائِلٍ

إِذَا مَا أَرَادَ الْقَوْلَ زَوَّرَهُ شَهْرا

وَلا أَدَّعِي أَنِّي قَدْ بَلَغْتُ الْغَايَةَ فَـ«لا يَنْتَطِعُ فِيهَا عَنْزَانِ»(٢)، و«لا تَنْفِطُ(٣) فِيهَا عَنَاقٌ»(٤)(٥)، و«لا

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميدانيّ (١/٢٤١)، و«الأَمثَالُ» لأبي عُبيدٍ (١٠١).
(٢) انظر «مُجمع الأمثَالُ» (٢/٢٢٥)، و«الفَاخر» (٣١٢)، و«المُسْتَقْصي» (٢/٢٢٧)، و«الجَمْهرة» (٢/٣٧٦).
(٣) النَّفيطُ: نَثيرُ المَعز.
(٤) العَنَاق– بزِنَة سَحَابٍ– أُنْثَى المَعزِ، وَالجَمْعُ: أَعْنَقٌ، وَعُنُقٌ، وَعُنُوقٌ.
(٥) انظر «مجمع الأَمثَالُ» (٢/٢٢٥)، و«الجَمْهرة» (٢/٢٠٤).



عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ»(١)، و«كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الفَرَا»(٢).

وَلَكِنْ أَقُولُ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ:

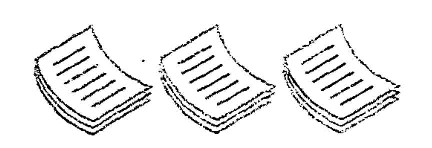
وَإِنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدَّ الخللا
فَجَلَّ مَنْ لا عَيْبَ فِيهِ وَعَلا

جَرَى الْقَلَمُ بِمَا تَقَدَّمَ

وكتبه

أبو عبد الله

فيصل بن عبده قائد الحاشدي



(١) انظر «مَجمَع الأَمثَال» (٢ / ٢١).

(٢) انظر «مَجمَع الأَمثَال» (٢ / ١٥٠)، و«الأَمثَالُ» (ص٣٤٣).



بسم الله الرحمن الرحيم

نَصُّ الرِّسالة

الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ أَشْرَفِ المُرْسَلِينَ.

أَمَّا بَعْدُ،

مِنْ فَيْصَلِ بْنِ عَبْده قَائدٍ الحَاشِدِيِّ إِلَىٰ جَنَابِ وَلَدِي العَزِيزِ / .... حَفِظَهُ اللهُ.

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُهُ.

وَبَعْدُ،

أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذي لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ، وَأَسْأَلُهُ لَنَا وَلَكُمُ الثَّبَاتَ فِيمَا نَقُولُ وَنَذَرُ.

أَيْ بُنَيَّ، تَوَسَّمْتُ فِيكَ النَّجَابَةَ صَغِيرًا، وَالْعَقْلَ وَحُسْنَ الرَّأْيِ فَتِيًّا، وَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ أَمَارَاتِ الشَّبَابِ عَلَيْكَ بَادِيَةً ، أَحْبَبْتُ أَنْ أُذَكِّرَكَ مَا أَنْتَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ، وَلاسِيَّمَا



فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ مِنْ عُمُرِكَ، وَهُوَ لُزُومُ صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ، وَهَأَنَا أَذْكُرُ لَكَ صِفَاتِ الصَّاحِبِ الصَّالِحِ، وَعَظِيمَ نَفْعِهِ، وَخُطُورَةَ صَدِيقِ السَّوْءِ، والخِلالَ الْمُعْتَبَرَةَ فِيهِ، مَعَ عِلْمِي أَنَّكَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ نُفُوراً مِنْهُ، لَكِنْ مِنْ بَاب:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ ... وَلَكِنْ لِتَوَقِّيهِ
وَمَنْ لا يَعْرِفِ الشَّرَّ ... مِنَ الخَيْرِ يَقَعْ فِيهِ

وَلأَنَّ الصَّاحِبَ الصَّالِحَ - يَا بُنَيَّ - إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ وَيُعْرَفُ قَدْرُهُ بِذِكْرِ ضِدِّهِ، كَمَا قِيلَ:

وَنَذِيمُهُمْ (١) وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ
وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ، وَيُفَقِّهَكَ فِي الدِّينِ، وَيَجْعَلَكَ هَادِيًا مَهْدِيًّا.

---

(١) «نَذِيمُهُمْ: نَعِيبهُم ونَذمُّهم، وبَابُهُ بَاعَ.

اخْتِيارُ الصَّاحِبِ الصَّالِحِ
تَوْجِيهٌ رَبَّانِيٌّ

أَيْ بُنَيَّ، لَقَدْ أَمَرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بِحُسْنِ اخْتِيَارِ الصُّحْبَةِ، فَقَالَ -عَزَّ وَجَلَّ- مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ -ﷺ-: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكَهْف: ٢٨].

قَالَ الطَّبَرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَاصْبِرْ يَا مُحَمَّد نَفْسَكَ مَعَ أَصْحَابِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، بِذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ بِالتَّسْبِيحِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَالتَّهْلِيلِ، وَالدُّعَاءِ، وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنَ الصَّلَوَاتِ المَفْرُوضَةِ وَغَيْرِهَا، يُرِيدُونَ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ وَجْهَهُ، لا يُرِيدُونَ بِهِ غَرَضًا مِنْ غَرَضِ الدُّنْيَا»(١).

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيّ» (١٥/ ١٥٤).



فَانْظُرْ - يا بُنَيَّ - إِلَىٰ تَوْجِيهِ اللهِ، واخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا اخْتَارَهُ اللهُ لِنَبِيِّهِ - ﷺ - حَيْثُ أَمَرَهُ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَرْجُونَ اللهَ وَقَارًا، وَلا يُرِيدُونَ غَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، وَمِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُمْ بَشَرٌ كَسَائِرِ الْبَشَرِ، فَلا يَحْسُنُ أَنْ نُعَاتِبَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، فَمَا ذَاكَ بِأَخْلاقِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - قَالَ: «مَا مَسِسْتُ دِيبَاجًا وَلا حَرِيرًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، وَلَقَدْ خَدَمْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَلا لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟، وَلا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا»[1].

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥٦١)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٠٩).



وَلَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي يَقُولُ:

إذا كُنْتَ في كُلِّ الأُمورِ مُعاتِبًا
صَديقَكَ ، لَمْ تَلْقَ الَّذي لا تُعاتِبُهْ

وإِنْ أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرارًا على القَذَى(١)
ظَمِئْتَ، وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفو مَشارِبُهْ؟!

فَعِشْ واحدًا، أَوْ صِلْ أخاكَ؛ فإِنَّهُ
مُقارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجانِبُهْ (٢)

وقَالَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ :

وَمَنْ لا يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَديقِه
وَعَنْ بَعْضِ مَا فيهِ يَمُتْ وَهُوَ عَاتِبُ

وَمَنْ يَتَتَبَّعْ ـ جَاهِدًا ـ كُلَّ عَثْرَةٍ
يَجِدْهَا، وَلاَ يَسْلَمْ لَهُ ـ الدَّهْرَ ـ صَاحِبُ(٣)

---

(١) القَذَى ـ بزِنَةِ الفَتَى ـ : مَا يَقَعُ في الشَّرابِ مِنْ تُرابٍ ووَسَخٍ ونَحوِهِما، الوَاحدة: قَذَاةٌ .

(٢) الشِّعْرُ لبشَّار بْن بُرْدٍ، كَما في «أدَب الدُّنْيا وَالدِّين» (ص١٧٨).

(٣) «مُحَاضَراتُ الأُدَباء وَمُحاوَرَاتُ الشُّعَرَاءِ وَالْبُلَغَاءِ» للرَّاغِبِ (٣/ ١٥).



حَثُّ النَّبِيِّ - ﷺ - عَلَى اخْتِيارِ الصَّاحِبِ الصَّالِحِ

أَيْ بُنَيَّ، لَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ - ﷺ - عَلَى حُسْنِ اخْتِيارِ الصَّاحِبِ الصَّالِحِ.

فَعَنْ عَمْرو بن العاص - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: **«ألا إِنَّ آلَ أَبِي فُلانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيائي، إِنَّما وليِّيَ اللهُ، وَصَالِحُ المُؤْمِنينَ»** (١).

وَعَنْ أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قَالَ: **«لا تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤْمِنًا، ولا يأْكُلْ طعامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ»** (٢).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٥٩٩٠)، وَمُسلِمٌ (٢١٥).

(٢) حَسَنٌ، رَوَاهُ أَحْمَدُ (١٠٩٤٤)، والتِّرْمِذيُّ (٢٣٩٥)، وأبو داوُدَ (٤٨٣٢)، وحسَّنهُ الأَلْبانيُّ في «المشكَاة» (٥٠١٨)، و«صَحيح الجَامِعُ» (٧٣٤١).



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «**المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» (١).

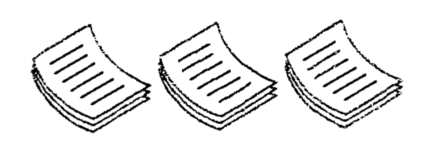
فَبَيَّنَ - هُنَا - أَنَّ المَرْءَ مُشَاكِلٌ وَمُمَاثِلٌ لِخَلِيلِهِ وَجَلِيسِهِ فِي الاسْتِقَامَةِ وَالصَّلاحِ وَعَدَمِهِمَا ؛ وَلِذَا قَالَ - مُرَغِّبًا فِي اخْتِيَارِ الجْلِيسِ -: «**فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»، أَيْ: لِيَتَبَيَّنْ مَنْ خَلِيلُهُ، وَلْيَخْتَبِرِ الخَلِيلَ وَالصَّاحِبَ المَرْضِيَّ فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ.

قَالَ الخَطَّابِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: (قَوْلُهُ: «**المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ**» مَعْنَاهُ: لا تُخَالِلْ إِلاَّ مَنْ رَضِيتَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ؛

(١) حَسَنٌ، رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢ / ٣٠٣)، وأبو داوُدَ (٤٨٣٣)، والتِّرْمِذيُّ (٢٣٧٨)، ثلاثتُهُمْ بلفظ (الرَّجُلِ)، والحاكم (٤ / ١٧١)، وحَسَّنَهُ لِغَيْرِهِ الألبانيُّ في «الصَّحِيحَة» (٩٢٧)، وحسَّنَهُ شَيْخنا الوداعيُّ في «الصَّحيح المُسْنَد مِمَّا لَيْسَ في الصَّحِيحَيْنِ» (٢ / ٣٣١).



فَإِنَّكَ إِذَا خَالَلْتَهُ ، قَادَكَ إِلَىٰ دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ، فَلا تُغَرِّرْ بِدِينِكَ، وَلا تُخَاطِرْ بِنَفْسِكَ، فَتُخَالِلَ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ) (١).



(١) «الذَّرِيعَةُ إِلَىٰ مَكَارِمِ الشَّرِيعَةِ» (ص١٩٢).



الإِنْسَانُ يُؤَثِّرُ وَيَتَأَثَّرُ

أَيْ بُنَيَّ، الإِنْسَانُ بِطَبْعِهِ يُؤَثِّرُ وَيَتَأَثَّرُ، يُؤَثِّرُ عَلَىٰ غَيْرِهِ وَيَتَأَثَّرُ بِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الأَصْحَابِ، وَحَتَّىٰ لَوْ كَانَ هَذَا الصَّاحِبُ حَيَوَانًا، وَعَلَىٰ هَذَا أَدِلَّةٌ قَاطِعَةٌ، وَبَرَاهِينُ سَاطِعَةٌ.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: **«رَأْسُ الْكُفْرِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالإِبِلِ وَالْفَدَّادِينَ** (٢) **أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ»**.

فَهَذَا الحَدِيثُ - يَا بُنَيَّ - مِنْ أَبْلَغِ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ أَنَّ

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٣٣٠١)، وَمُسْلِمٌ (٥٢).

(٢) الفَدَّادِين - مُثَقَّلاً -: أَصْحَابُ الإِبِلِ مِنَ المَائَتَيْنِ إِلَىٰ الأَلْفِ، وَأَحَدُهُمْ فَدَّادٌ، وَهُوَ مِنَ الفَدِيدِ، وَهُوَ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ.



الإِنْسَانَ ويَتَأَثَّرُ بِغَيْرِهِ مِنَ الأَصْحَابِ، فَهَا هُوَ يَتَأَثَّرُ بِحَيَوانٍ بِسَبَبِ صُحْبَتِه.

فَالخَيْلُ - يَا بُنَيَّ - لَمَّا كَانَتْ تَمْشِي تَبَخْتُرًا؛ أَوْرَثَتْ مَنْ يُصَاحِبُهَا كِبْرًا، وَالنَّاقَةُ لَمَّا كَانَتْ تَمْشِي رَافِعَةً رَأْسَهَا؛ أَوْرَثَتْ مَنْ يُصَاحِبُهَا عُجْبًا، وَالْبَقَرُ أَوْرَثَتْ مَنْ يُصَاحِبُهَا جَفَاءً وَغِلْظَةً؛ إِذْ ذَلِكَ طَبْعُهَا، وَالشَّاةُ لَمَّا كَانَتْ سَاكِنَةً ؛ أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا سُكُونًا، وَلا يَقِفُ الأَمْرُ هُنَا، فَهَا هُوَ الحَيَوانُ يَتَأَثَّرُ بِالإِنْسَانِ، فَقَدِ اكْتَسَبَ مِنْهُ المُؤَالَفَةَ، وَقِلَّةَ النَّفْرَةِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ -: «الآدَمِيُّ إِذَا عَاشَرَ نَوْعًا مِنَ الحَيَوَانِ اكْتَسَبَ بَعْضَ أَخْلاقِهِ؛ وَلِهَذَا صَارَتِ الخُيَلاءُ وَالْفَخْرُ فِي أَهْلِ الإِبِلِ، وَصَارَتِ السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الغَنَمِ، وَصَارَ الجَمَّالُوْنَ والبَغَّالُوْنَ فِيهِمْ أَخْلاقٌ مَذْمُومَةٌ مِنْ أَخْلاقِ الجِمَالِ والْبِغَالِ، وَكَذَلِكَ الكَلاَّبُونَ،



وَصَارَ الحَيَوَانُ الإِنْسِيُّ فِيهِ بَعْضُ أَخْلاقِ النَّاسِ مِنَ المُعَاشَرَةِ، وَالمُؤَالَفَةِ، وَقِلَّةِ النّفْرَةِ، فَالمُشَابَهَةُ فِي الأُمُورِ الظَّاهِرَةِ تُوجِبُ المُشَابَهَةَ فِي الأُمُورِ الْبَاطِنَةِ عَلَىٰ وَجْهِ المُسَارَقَةِ وَالتَّدَرُّجِ الخَفِيِّ»[1].

أَيْ بُنَيَّ، مَعَ إِيمَانِي الشَّدِيدِ بِصِحَّةِ الحَدِيثِ، وَصِدْقِ المَعْصُومِ؛ فَقَدْ طَبَّقْتُ ذَلِكَ، وَجَرَّبْتُ مَعَ النَّاسِ مِنْ بَابِ «وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي».

وَمَعَ أَنِّي لا أَحْتَاجُ لِذَلِكَ، لَكِنِّي كُنْتُ أَسْتَرْوِحُ لِنَفْسِي بُغْيَةَ تَقْرِيرِ الأَحَادِيثِ فِي الذِّهْنِ، فَلا أَنْسَىٰ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا.

فَجَرَبْتُ ذَلِكَ مَعَ الخَيْلِ وَمَعَ أَصْحَابِهَا، وَحَسْبُكَ مَا صَحَّ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ رَكِبَ بِرْذَوْنًا[2]، فَجَعَلَ يَتَبَخْتَرُ بِهِ،

(١) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٤٨٧).
(٢) البِرْذَوْنُ: -بالكَسْرِ- منَ الخَيْلِ وَالبِغَالِ: مَا كَانَ منْ غَيْرِ نتَاجِ العِرَابِ، والجَمعُ: بَرَاذِيْنُ. انظر «لِسَانَ العَرَبِ» (١ / ٣٧٠).



فَجَعَلَ عُمَرُ يَضْرِبُهُ، فَلا يَزْدَادُ إِلاَّ تَبَخْتُراً، فَنَزَلَ عَنْهُ، وَقَالَ: « مَا حَمَلْتُمُونِي إِلاَّ عَلَىٰ شَيْطَانٍ ؛ مَا نَزَلْتُ عَنْهُ حَتَّىٰ أَنْكَرْتُ نَفْسِي »[1].

وَأَمَّا الإِبِلُ فَالحَدِيثُ عَنْهَا وَعَنْ أَصْحَابِهَا ذُو شُجُونٍ[2]، لَكِنْ حَسْبُكَ مِنَ الزَّادِ مَا يُبَلِّغُكَ المَحَلَّ؛ فَأَذْكُرُ أَنِّي الْتَقَيْتُ بِصَاحِبِ إِبِلٍ، فَسَاوَمْتُ[3] عَلَىٰ مَا فِي ضَرْعِ بَعْضِهَا، فَطَارَ صَوَابُهُ، فَلا زِمَامَ مِنْ دِينٍ، وَلا لِجَامَ مِنْ أَخْلاقٍ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ الإِبِلِ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ هَذَا الْغَالِبُ فِي حَقِّ مَنْ خَلا بِالإِبِلِ ، وَأَنِسَ بِهَا مِنْ دُونِ النَّاسِ.

---

(١) أخرجَهُ الطَّبريُّ (١ / ٧٦)، وابنُ أَبي شَيبة في « تاريخ المدينة » (٣ / ٨٢٢، ٨٢٣).

(٢) الحَديثُ ذُو شُجُونٍ أَيْ: ذُو شُعَبٍ وَامتسَاكٍ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ يُضْرَبُ هَذَا امَثَلاً لِلْحَدِيثِ يُسْتَذْكَرُ بِهِ غَيْرُهُ .

(٣) سَاوَمَ عَلَىٰ السِّلْعَة : غَالَىٰ .



وأَمَّا الشَّاة فَقَدْ خَلَوْتُ بِهَا دَهْرًا أَرْعَاهَا، فَوَجَدْتُهَا سَاكِنَةً، فَسَكَنَتِ النَّفْسُ عَمَّا لا يَحْسُنُ وَلا يَجْمُلُ.

وَيَكْفِي رُعَاةَ الشَّاةِ فَخْرًا قَوْلُ النَّبِيِّ - ﷺ -: «**ما بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًا إِلاَّ رَعَىٰ الغَنَمَ**».

فَقَالَ أَصْحَابُهُ: «**وَأَنْتَ؟**».

قَالَ: «**نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ** (١) **لأَهْلِ مَكَّةَ**» (٢).

وأَمَّا الفَدَّادُونَ أَصْحَابُ الإِبل، فَقَدْ عَرفْنَاهُمْ فِي الْبَوَادِي وَالْقُرَىٰ أَصْحَابَ جَفَاءٍ وَغِلْظَةٍ.

وَلِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مِنْ جِنْسِهِ
حَتَّىٰ الحَدِيدُ سَطَا عَلَيْهِ المبردُ

---

(١) القَرَارِيطُ: جَمعُ القِيرَاطِ - بالكَسْرِ -، وهُو جُزْءٌ مِنَ الدِّينَارِ أَوْ الدِّرْهَمِ.

(٢) أَخرَجَهُ البُخَارِيُّ (٢٢٦٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.



تَأْثِيرُ الصَّاحِب

أَيْ بُنَيَّ، إِنَّ تَأْثِيرَ الصَّاحِبِ فِي صَاحِبِهِ لَعَظِيمٌ، وَقَدْ لا يَتفَطَّنُ لِذَلِكَ الأَغْمَارُ (١) مِنَ النَّاسِ.

شَيْئَانِ يَنْقُشَانِ لأَوَّلِ وَهْلَةٍ:

ظِلُّ الشَّبَابِ ، وَخُلَّةُ الأَشْرَارِ

وَيَزْدَادُ التَّأْثِيرُ إِذَا كَانَ الصَّاحِبُ ذَا جَاهٍ ، أَوْ مَالٍ ، أَوْ لِسَانٍ ، أَوْ سَمْتٍ حَسَنٍ ، وَالْمُصَاحِبُ دُونَ ذَلِكَ.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ - رضي الله عنه - : أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ** (٣)،

---

(١) الأَغْمَارُ: جَمْعُ غَمْرٍ - بالتَّثليث ويُحرَّك -، وَهُو مَنْ لَم يُجَرِّبِ الأُمُورَ.
(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم (١٤٦/٢٦٢٨).
(٢) **الكِيرِ** - بالكَسْرِ - الزِّقُّ الَّذي يَنْفُخ فِيْهِ الحَدَّاد، والجَمْعُ: أَكْيَارٌ وكِيرَة.



فحامل المسك إمّا أنْ يُحْذيك [1] ، **وإمّا أنْ تبْتاع منْهُ، وإمّا أنْ تجد منْهُ ريحًا طيِّبةً، ونافخ الْكير إمّا أنْ يُحْرق ثيابك، وإمّا أنْ تجد منْهُ ريحًا خبيثةً».**

وَهَذَا – يَا بُنَيَّ – حَدِيثٌ عَظِيمٌ، وَتَوْجِيهٌ مِنْ نَبِيٍّ كَرِيمٍ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، وقَدْ أَرْشَدَ إِلَىٰ مُصَاحَبَةِ الصَّالِحِينَ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مُصَاحَبَةِ مَنْ يُتَأَذَّىٰ بِمُصَاحَبَتِه، وبِالمِثَالِ يَتَّضِحُ المَقَالُ.

فَالجَلِيسُ الصَّالِحُ مَثَّلَهُ بِحَامِلِ المِسْكِ، مَتَىٰ جَالَسْتَهُ حَصَلَ لَكَ وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلاثٍ:

إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، أَيْ: يُعْطِيَكَ وَيُهْدِيَ إِلَيْكَ، أَوْ تَشْتَرِيَ مِنْهُ ، أَوْ تَجِدَ مِنْهُ الرَّائِحَةَ الطَّيِّبَةَ المُؤَثِّرَةَ عَلَىٰ نَفْسِكَ وَبَدَنِكَ وَثِيَابِكَ، فَكَذَلِكَ جَلِيسُكَ الصَّالِحُ لابُدَّ أَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْهُ ، وَتَنْتَفِعَ بِمُجَالَسَتِه.

(١) **يُحْذِيك**: أيْ يُعْطِيكَ.



وَشَبَّهَ الجَلِيسَ السُّوءَ بِنَافِخِ الْكِيرِ ، فَهُوَ إِمَّا أَنْ يَتَطَايَرَ عَلَيْكَ مِنْ شَرَرِ نَارِهِ، فَيُحْرِقَ ثِيَابَكَ، أَوْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً تُصِيبُ بَدَنَكَ وَثَوْبَكَ ، فَكَذَلِكَ جَلِيسُ السَّوْءِ لابُدَّ أَنْ تَتَضَرَّرَ بِمُجَالَسَتِهِ .

قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ - رَحِمَهُ اللهُ -: « مَثَّلَ النَّبِيُّ - ﷺ - بِهَذَيْنِ المِثَالَيْنِ مُبَيِّنًا أَنَّ الجَلِيسَ الصَّالِحَ جَمِيعُ أَحْوَالِكَ مَعَهُ، وَأَنْتَ فِي مَغْنَمٍ وَخَيْرٍ كَحَامِلِ المِسْكِ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِمَا مَعَهُ مِنَ المِسْكِ : إِمَّا بِهِبَةٍ ، أَوْ بِعِوَضٍ، وَأَقَلُّ ذَلِكَ مُدَّةَ جُلُوسِكَ مَعَهُ ، وَأَنْتَ قَرِيرُ النَّفْسِ بِرَائِحَةِ المِسْكِ، فَالخَيْرُ الَّذِي يُصِيبُهُ الْعَبْدُ مِنْ جَلِيسِهِ الصَّالِحِ أَبْلَغُ وَأَفْضَلُ مِنَ المِسْكِ الأَذْفَرِ[١] ؛ فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يُعَلِّمُكَ مَا يَنْفَعُكَ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ، أَوْ يُهْدِي لَكَ نَصِيحَةً، أَوْ يُحَذِّرُكَ مِنَ الإِقَامَةِ عَلَىٰ مَا يَضُرُّكَ، فَيَحُثُّكَ عَلَىٰ طَاعَةِ

(١) المِسْكُ الأَذْفَر: الجَيِّدُ إِلَىٰ الغَايَةِ .



اللهِ، وبرِّ الوَّالدَيْنِ، وَصلَةِ الأَرْحَامِ، وَيُبَصِّرُكَ بعُيُوبِ نَفْسكَ، ويَدْعُوكَ إِلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ وَمَحَاسنهَا بقَوْله وَفعْله وَحَاله؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ مَجْبُولٌ عَلَىٰ الاقْتدَاءِ بصَاحبه وَجَليسه، وَالطِّبَاعُ وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ يَقُودُ بَعْضُهَا إِلَىٰ الخَيْرِ، أَوْ إِلَىٰ ضِدِّه.

وَأَقَلُّ مَا تَسْتَفيدُ منَ الجَليسِ الصَّالحِ (وَهِيَ فَائدَةٌ لا يُسْتَهَانُ بهَا) أَنْ تَنْكَفَّ بسَبَبه عَنِ السَّيِّئَات وَالمَعَاصي؛ رعَايَةً للصُّحْبَة، وَمُنَافَسَةً في الخَيْرِ، وَتَرَفُّعًا عَنِ الشَّرِّ، وأَنْ يَحْفَظَكَ في حَضْرَتكَ وَمَغيبكَ، وأَنْ تَنْفَعَكَ مَحَبَّتُهُ وَدُعَاؤُهُ في حَالِ حَيَاتكَ، وَبَعْدَ مَمَاتكَ، وَأَنْ يُدَافعَ عَنْكَ بسَبَبِ اتِّصَاله بكَ، وَمَحَبَّته لَكَ.

وَتلْكَ أُمُورٌ لا تُبَاشرُ أَنْتَ مُدَافَعَتَهَا، كَمَا أَنَّهُ قَدْ يَصلُكَ بأَشْخَاصٍ وَأَعْمَالٍ يَنْفَعُكَ اتِّصَالُكَ بهمْ.

وَفَوَائدُ الأَصْحَابِ الصَّالحينَ لا تُعَدُّ وَلا تُحْصَىٰ،



وَحَسْبُ المَرْءِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِقَرِينه، وَأَنْ يَكُونَ عَلَىٰ دِينِ خَليله.

وَأَمَّا مُصَاحَبَةُ الأَشْرَارِ فَإِنَّهَا بِضِدٍّ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَا، وَهُمْ مَضَرَّةٌ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ عَلَىٰ مَنْ صَاحَبَهُمْ، وَشَرٌّ عَلَىٰ مَنْ خَالَطَهُمْ، فَكَمْ هَلَكَ بِسَبَبِهِمْ أَقْوَامٌ، وَكَمْ قَادُوا أَصْحَابَهُمْ إِلَىٰ المَهَالِكَ مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُونَ وَمِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ»[١].

فَانْظُرْ - يَا بُنَيَّ - إِلَىٰ تِلْكَ الدُّرَرِ الَّتِي تَفَوَّهَ بِهَا عَالِمٌ مُبَجَّلٌ، وَأَعِدِ النَّظَرَ حَوْلَهَا، حِينَهَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ قَرَّبَ لَكَ الحَدِيثَ، وَشَرَحَهُ شَرْحًا جَلِيلاً، فَمَا عَلَيْكَ - يَا بُنَيَّ - إِلاَّ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ هَذَا الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ

---

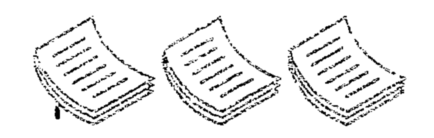
(١) انظر «بَهْجَةُ قُلُوب الأَبرَار» لابْنِ سَعْدِيٍّ (ص٣١٣، ٣١٤) الحديث الثَّامن والسِّتُّون.

كُلُّ مَا يَلْمعُ ذَهَبًا، فَلابُدَّ أَنْ يُخْتَبَرَ الذَّهَبُ بِالنَّارِ، وَيُخْتَبَرَ الجَلِيسُ بالتَّجْرِبَةِ، فقد قيل:

فَلا تَقْنَعْ بِأَوَّلِ مَا تَرَاهُ
فَأَوَّلُ طَالِعٍ فَجْرٌ كَذُوبُ

وقيل:

لا تَحْمَدَنَّ امْرأً حَتَّىٰ تُجَرِّبَهُ
وَلا تَذُمَّنَّهُ مِنْ غَيْرِ تَجْرِيبِ





الصَّاحِبُ الصَّالِحُ لا يَشْقَى بِهِ جَلِيسُهُ

أَيْ بُنَيَّ، مَنْ صَاحَبَ الرَّجُلَ الصَّالِحَ نَالَ مِنْ بَرَكَةِ صَلاحِهِ، وَإِنْ كَانَ دُونَهُ بِمَرَاحِلَ.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: **«إِنَّ للهِ - تبارك وتعالى - مَلائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلاً، يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ.**

قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ -: مِنْ

---

(١) رواهُ البُخَارِيُّ (٦٤٠٨)، ومُسْلِمٌ (٢٦٨٩)، واللَّفْظُ لَهُ.



أَيْنَ جِئْتُمْ؟ ، فَيَقُولُونَ : جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ.

قَالَ : وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟. قَالُوا : يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ. قَالَ : وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟، قَالُوا : لاَ ، أَيْ رَبِّ . قَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي ؟! .

قَالُوا : وَيَسْتَجِيرُونَكَ. قَالَ : وَمِمَّا يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا : مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ. قَالَ : وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ ،قَالُوا : لاَ ، أَيْ رَبِّ . قَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟! . قَالُوا : وَيَسْتَغْفِرُونَكَ. قَالَ : فَيَقُولُ : قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا.

قَالَ : فَيَقُولُونَ : رَبِّ ، فِيهِمْ فُلانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ. قَالَ : فَيَقُولُ : وَلَهُ غَفَرْتُ ؛ هُمُ الْقَوْمُ لاَ



يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

أَيْ بُنَيَّ، أَرَأَيْتَ ذَلِكَ الشَّقِيَّ، كَيْفَ سَعِدَ بِمُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ، وَكَيْفَ غَفَرَ اللهُ لَهُ بِفَضْلِ مُصَاحَبَتِهِ لَهُمْ، وَاعْلَمْ -يَا بُنَيَّ- أَنَّهُ لا يَسْتَوْحِشُ مِنْ مُصَاحَبَةِ الصَّالِحِينَ، وَيَأْنَسُ لِغَيْرِهِمْ إِلاَّ مَحْرُومٌ مِنَ الخَيْرِ.

وَمِنْ مَنْثُورِ الحِكَمِ: «صُحْبَةُ الأَشْرَارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالأَخْيَارِ»(١).

أَيْ بُنَيَّ، تَوَلَّ الصَّالِحِينَ وَأَحِبَّهُمْ فِي اللهِ، وَأَبْغِضْ دُخَلاءَ السَّوْءِ بِقَدْرِ قُرْبِهِمْ مِنَ الشَّرِّ وَبُعْدِهِمْ مِنَ الخَيْرِ؛ تَسْمُ بِإِيمَانِكَ؛ فَقَدْ قَالَ نَبِيُّنَا -ﷺ- : «**أَوْثَقُ عُرَىٰ**

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (١٨١).

(٢) حَسَنٌ، أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ (٣/ ١٢٥)، والبَغَوِيُّ في «شَرح السُّنَّة» (١٣/ ٥٣/ ٣٤٦٨)، وحسَّنه الأَلْبَانِيُّ في «الصحيحة» (٩٩٨).



الإيمان: المُوَالاةُ فِي اللهِ، والمُعَاداةُ في اللهِ، وَالحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»[٢].

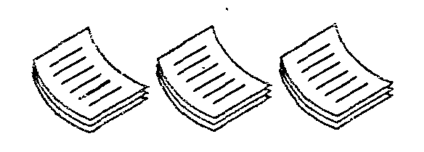
وَلَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي يَقُولُ:

وَأَحِبَّ لِحُبِّ اللهِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا

وَأَبْغِضْ - لِبُغْضِ اللهِ - أَهْلَ التَّمَرُّدِ

وَمَا الدِّينُ إِلاَّ الحُبُّ، وَالْبُغْضُ، والوَلا

كَذَاكَ الْبَرَا مِنْ كُلِّ غَاوٍ وَمُعْتَدِي





الصَّاحِبُ السَّيِّئُ يَشْقَىٰ بِهِ جَلِيسُهُ

أيْ بُنَيَّ، إِذَا كَانَ الصَّاحِبُ الصَّالِحُ لا يَشْقَىٰ بِهِ جَلِيسُهُ؛ فَإِنَّ الصَّاحِبَ السَّيِّئَ قَدْ يَشْقَىٰ بِهِ جَلِيسُهُ؛ فَإِنَّ أُنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ خَرَجُوا يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ هُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - يَرْمِي أَحَدُهُمْ أَخَاهُ، فَيَقَعُ الْحَرَجُ، وَلَكِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أَنْزَلَ مَا يُرْفَعُ بِهِ الْحَرَجُ، مَعَ وَعِيدٍ شَدِيدٍ لِلَّذِينَ خَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما -: أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ؛

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٥٩٦).



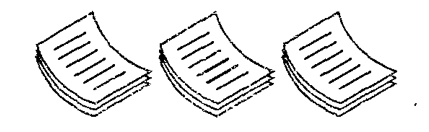
يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَىٰ بِهِ ، فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ، فَأَنْزَلَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) ﴾ [النِّسَاءُ: ٩٧] .

فَانْظُرْ - يَا بُنَيَّ - كَيْفَ أَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي حَلَّ بِالْكَافِرِينَ قَدْ شَمِلَ أُنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ خُرُوجِهِمْ مَعَهُمْ، وَتَاللهِ ، إِنَّا لَنَخْشَىٰ عَلَىٰ مَنْ يُجَالِسُ أُنَاسًا عُرِفُوا بِمُقَارَفَةِ الْمَعَاصِي كَالسُّخْرِيَّةِ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَالتَّعَرُّضِ لِبَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ - مِنْ أَنْ تَشْمَلَهُمْ عُقُوبَةُ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - ، وَالْعَاقِلُ - يَا بُنَيَّ - لا يُخَاطِرُ بِدِينِهِ .



وَكُلُّ خَلِيلٍ لَيْسَ فِي اللهِ وُدُّهُ

فَإِنِّي بِهِ فِي وُدِّهِ غَيْرُ وَاثِقِ





الصَّالِحُ وَغَيْرُ الصَّالِحِ لا يَجْتَمِعَانْ

أَيْ بُنَيَّ، احْذَرْ أَنْ تُصَاحِبَ غَيْرَ الصَّالِحِ بِحُجَّةِ أَنَّ لَكَ أَصْحَابًا صَالِحِينَ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ يَسْرِقُ، وَفِي هَذِهِ الحَالَةِ يَكُونُ مَوْقِفُ الصَّاحِبِ الصَّالِحِ ضَعِيفًا؛ لأَنَّهُ لَيْسَ مَنْ يَرْفَعُكَ إِلَىٰ الْقِمَّةِ، كَمَنْ يَهْبِطُ بِكَ إِلَىٰ الوَادِي؛ فَالجَنَّةُ إِنَّمَا حُفَّتْ بِالمَكَارِهِ، زِدْ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ المَرْءَ قَدْ يُخْذَلُ عَلَىٰ مُوَالاتِهِ مَنْ يُحَارِبُ مَوْلاهُ، وَيَتَّخِذُهُ وَالِيّاً!.

وَلَكَ - يَا بُنَيَّ - أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَلْحَقَهُ الصَّاحِبُ السَّيِّئُ أَبُو جَهْلٍ بِأَبِي طَالِبٍ.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ



اللهِ - ﷺ -، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ ابْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**يا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» (١).

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتَّىٰ قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ».

وَهَذَا - يَا بُنَيَّ - يَدُلُّ عَلَىٰ خُطُورَةِ صَدِيقِ السَّوْءِ.

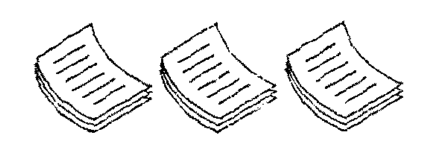
وَمَا بَيْنَ الصَّاحِبَيْنِ إِلاَّ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَلَنْ يَجْتَمِعَا إِلاَّ كَمَا يَجْتَمِعُ الْمَاءُ وَالنَّارُ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٨٨٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٤).



شَتَّانَ بَيْنَ الحَالَتَيْنِ (١)، فَإِنْ تُرِدْ
جَمْعًا، فَمَا الضِّدَّانِ يَجْتَمِعَانِ
وَاللهِ ، مَا اجْتَمَعَا ، وَلَنْ يَتَلاقَيَا
حَتَّىٰ تَشِيبَ مَفَارِقُ (٢) الْغِرْبَانِ



(١) أي: بَعُدَ جداً ما بَيْنَهُمَا

(٢) المَفَارِقُ: جَمْعُ مَفْرَق - بزِنَةِ مَقْعَدٍ وَمَجْلِسٍ -، وهُو وَسَطُ الرَّأْسِ الَّذي يُفْرَقُ فِيْهِ الشَّعْرُ .



اخْتِيارُ الأَصْحَابِ

أَيْ بُنَيَّ، اسْبُرْ أَحْوَالَ مَنْ تُصَاحِبُ قَبْلَ أَنْ تُصَاحِبَهُ، وَاكْشِفْ عَنْ أَخْلاقِهِ قَبْلَ اصْطِفَائه، كَمَا قِيلَ: «اسْبُرْ تَخْبُرْ»(١).

وَقِيلَ:

سَبَكْنَاهُ وَنَحْسَبُهُ لُجَيناً(٢)

مَا بَدَى الْكِيرُ عَنْ خَبَثِ الحَدِيدِ(٣)

وَمِنْ مَنْثُورِ الحِكَمِ: «اعْرِفِ الرَّجُلَ مِنْ فِعْلِهِ، لا مِنْ كَلامِهِ، وَاعْرِفْ مَحَبَّتَهُ مِنْ عَيْنِهِ، لا مِنْ لِسَانِهِ»(٤).

وَمَنْ لا يُحْسِنِ الاخْتِيارَ، ظَنَّ النَّاسُ بِهِ مَا يُظَنُّ بِصَاحِبِهِ، كَمَا قِيلَ:

(١) «أَدَب الدُّنْيَا والدِّين» (ص١٦٦).
(٢) اللُّجَيْنُ -بالتَّصْغير- الفضَّة.
(٣) انظر «الفرائد في الأمثال» للخوليّ (ص٢٨١).
(٤) «أَدَب الدُّنْيَا والدِّين» (ص١٦٦).



«الإنْسَانُ مَوْسُومٌ بِسِيماءِ مَنْ قَارَبَ، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ أَفَاعِيلُ مَنْ صَاحَبَ»(1).

وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: «يُظَنُّ بِالمَرْءِ مَا يُظَنُّ بِقَرِينِهِ»(2).

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ ، وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارَنِ يَقْتَدِي
إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيارَهُمْ
وَلا تَصْحَبِ الأَرْدَىٰ فَتَرْدَىٰ مَعَ الرَّدِي(3)

قَالَ المَاوَرْدِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - : «فَلَزِمَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ - أَيْضًا - أَنْ يَتَحَرَّزَ مِنْ دُخَلاءِ السَّوْءِ، وَيُجَانِبَ أَهْلَ الرِّيْبِ؛ لِيَكُونَ مُوفُورَ الْعِرْضِ، سَلِيمَ الْغَيْبِ، فَلا يُلامُ بِمَلامَةِ غَيْرِهِ؛ وَلِهَذَا قِيلَ :التَّثَبُّتُ وَالارْتِيَاءُ، وَمُدَاوَمَةُ الاخْتِيَارِ وَالابْتِلاءِ مُتَعَذِّرٌ، بَلْ مَفْقُودٌ، وَقَدْ ضَرَبَ ذُو

(1) ، (2) «أَدَب الدُّنْيَا والدِّين» ، (ص167).
(3) «أَدَب الدُّنْيَا والدِّين» (ص167).



الرُّمَّةِ مَثَلاً بِالْمَاءِ فِيمَنْ حَسُنَ ظَاهِرُهُ، وَخَبُثَ بَاطِنُهُ، فَقَالَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ

وَإِنْ كَانَ لَوْنُ الْمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيَا

وَنَظَرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ إِلَىٰ رَجُلٍ سَوْءٍ حَسَنِ الْوَجْهِ، فَقَالَ: أَمَّا الْبَيْتُ فَحَسَنٌ، وَأَمَّا السَّاكِنُ فَرَدِيءٌ، فَأَخَذَ جَحْظَةُ [1] هَذَا الْمَعْنَىٰ، فَقَالَ:

رَبِّ مَا أَبْيَنَ التَّبَايُنَ فِيهِ

مَنْزِلٌ عَامِرٌ وَعَقْلٌ خَرَابُ!

وَأَنْشَدَ فِي بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ:

لا تَرْكَنَنَّ إِلَىٰ ذِي مَنْظَرٍ حَسَنٍ

فَرُبَّ رَائِعَةٍ قَدْ سَاءَ مَخْبَرُهَا

---

(١) جَحْظَةُ: لَقَبُ أَحْمَدَ بْنِ مُوسَىٰ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ، كَانَ شَاعِرًا أَدِيبًا جَاحِظَ الْعَيْنَيْنِ، ت: سنة ٣٢٤ هـ.



مَـا كُلُّ أَصْـفَـرَ دِينَارٌ لِـصُـفْـرَتِهِ

صُفْرُ الْعَقَارِبِ أَرْدَاهَا وَأَنْكَرُهَا(١)

ثُمَّ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ الحُكَمَاءِ: مَنْ لَمْ يُقَدِّمِ الامْتِحَانَ قَبْلَ الثِّقَةِ، وَالثِّقَةَ قَبْلَ الأُنْسِ- أَثْمَرَتْ مَوَدَّتُهُ نَدمًا.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مُصَارَمَةٌ قَبْلَ اخْتِبَارٍ، أَفْضَلُ مِنْ مُؤَاخَاةٍ عَلَىٰ اغْتِرَارٍ.

وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: لا تَثِقْ بِالصَّدِيقِ قَبْلَ الخِبْرَةِ، وَلا تَقَعْ بِالْعَدُوِّ قَبْلَ الْقُدْرَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

لا تَحْمَـدَنَّ امْرأً حَتَّىٰ تُجَرِّبَهُ

وَلا تَذُمَّنَّهُ مِنْ غَـيْـرِ تَجْـرِيبِ

فَـحَـمْـدُكَ المَرْءَ مَـا لَمْ تَبْلُـهُ خَطَأٌ

وَذَمُّهُ بَعْـدَ حَـمْـدٍ شَـرُّ تَكْذِيبِ

(١) أَرْدَاهَا: مِن الردَىٰ أي: أَسْرَعُهَا إِهْلاكًا، وأَخْبَثُهَا سُمًّا.



وَإِذَا قَدْ لَزِمَ مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ سَبْرُ الإِخْوَانِ قَبْلَ إِخَائِهِمْ، وَخِبْرَةُ أَخْلاقِهِمْ قَبْلَ اصْطِفَائِهِمْ(١).

وَاخْتِيَارُ الصَّاحِبِ - يَا بُنَيَّ - لا يَكُونُ فِي أَشْهُرٍ، فَضْلاً عَنْ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ لَيَحْتَاجُ إِلَىٰ سَنَوَاتٍ، أَلَيْسَ مِنَ الحَزْمِ أَنْ تَطُولَ فَتْرَةُ الاخْتِبَارِ مَعَ التَّحَفُّظِ وَتَرْكِ الاسْتِرْسَالِ؛ لأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ مِثْلُ كُتُبِ التَّفَاسِيرِ، وَبَعْضَهُمْ مِثْلُ كُتُبِ الأَحَادِيثِ، وَبَعْضَهُمْ مِثْلُ كُتُبِ الْفَلْسَفَةِ، وَبَعْضَهُمْ مِثْلُ كُتُبِ السِّحْرِ، وَبَعْضَهُم مِثْلُ كُتُبِ الطَّلاسِمِ، وَبَعْضُ تِلْكَ الْكُتُبِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ قِرَاءَةٍ نَقْدِيَّةٍ، وَبَعْضُهَا تُهْمَلُ لِظُهُورِ شَرِّهَا، فَكَذَلِكَ الأَصْحَابُ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مِنَ الحَزْمِ الاخْتِبَارُ قَبْلَ الاخْتِيَارِ مَا رَوَىٰ خُرَاشَةُ بْنُ الحُرِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ: «شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ - رضي الله عنه -، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنِّي

(١) «أدب الدُّنْيَا والدِّين» (ص١٦٧، ١٦٨).



لَسْتُ أَعْـرِفُكَ، ولاَ يضُـرُّكَ أَنِّي لا أَعْـرِفُكَ، فَـائْتِني بِمَنْ يَعْـرِفُكَ. فَـقَـالَ رَجُلٌ: أَنَا أَعْـرِفُهُ - يَا أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِينَ - . قَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ تَعْرِفُهُ؟!.

قَـالَ: بِالْعَـدَالَـةِ. قَـالَ: هُوَ جَـارُكَ الأَدْنَىٰ، تَعْـرِفُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَمُدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ؟.

قَـالَ: لا. قَـالَ: فَـعَـامَلَكَ بِالدِّرْهَـمِ وَالدِّينَارِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِمَا عَلَىٰ الْوَرَعِ؟. قَالَ: لا. قَالَ: فَصَاحَبَكَ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ؟ قَال: لا. قَالَ: فَلَسْتَ تَعْرِفُهُ»(١).

وَهَـذَا - يَا بُنَـيَّ - يَـدُلُّكَ عَلَىٰ عِنَايَـةِ الـسَّلَفِ فِي اخْتِبَارِ الرِّجَالِ، وَسُمُوِّ أَنْفُسِهِمْ، وَقُوَّةِ شَخْصِيَّاتِهِمْ، وَتَمَيُّزِهِمْ بِالْعَزْمِ وَالْحَزْمِ فِي كُلِّ أُمُورِهِمْ ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) صَحِيح، أَخْرَجَهُ العقيليُّ (٣٥٤)، والبَيْهَقيُّ (١٠/ ١١٥)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «الإرواء» (٢٦٣٧).



قَالَ أَحَدُهُمْ:

لا يُعْجِبَنَّكَ صَاحِبٌ
حَتَّىٰ تَبَيَّنَ مَا طِبَاعُهْ
مَاذَا يَضَنُّ(١) بِهِ عَلَيْـ
ـكَ ؟ وَمَا يَجُودُ بِهِ اتِّسَاعُهْ؟
أَوِ الَّذِي يَقْوَىٰ عَلَيْـ
ـهِ وَمَا يَضِيقُ بِهِ ذِرَاعُهْ؟
وَإِذَا الزَّمَانُ رَمَىٰ صَفَا
تِكَ بِالحَوَادِثِ، مَا دِفَاعُهْ؟
فَهُنَاكَ تَعْرِفُ مَا ارْتِفَا
عُ هَوَىٰ أَخِيكَ، وَمَا اتِّضَاعُهْ

وَفِيمَا يَأْتِي مِنَ الصَّفَحَاتِ الحَدِيثُ عَنْ بَعْضِ صِفَاتِ

(١) يَضَنُّ: يَبخَل.



الصَّاحِبِ الصَّالحِ الَّتي يُعْرَفُ بِهَا[1]، وبَعْضَ الخِلالِ المَوْجودَةِ في دُخَلاءِ السُّوْءِ؛ حَتَّىٰ تَكُونَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكَ، وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.



(١) لا تَحْسَبْ أَنَّكَ سَوفَ تَجِدُ أَخَاكَ الصَّالحَ كَمَا كُنْتَ تَظُنُّ سالمًا مِنَ العُيُوبِ، بَلْ حَسْبُكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنْ أَخِيكَ أَكْثَرُهُ، كَمَا قِيلَ: «إِذَا كَانَ لَكَ أكثري، فَتَجَافَ عَنْ أَيسَرِي».
وَقَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: «مَا كَشَفْتُ أحدًا - قطُّ - إلاَّ وجَدتُهُ دُونَ ما كُنتُ أَظُنُّ».

هُمُ النَّاسُ والدُّنيا ولابُدَّ مِنْ قَذَىً ... يلُمُّ بعَينٍ أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبا
ومِن قِلَّةِ الإنصَافِ أَنَّكَ تَبْتَغِي الْـ ... مُهَذَّبَ في الدُّنيا ولَسْتَ المُهَذَّبا



بعض صفات الصاحب الصالح

١ - العقل

أَيْ بُنَيَّ، عَلَيْكَ بِمُصَاحَبَةِ الْعَاقِلِ مِنَ النَّاسِ؛ لأَنَّ الْعَاقِلَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَبِرٍّ؛ فَهُوَ مَطْبُوعٌ عَلَىٰ حُبِّ الْمَكَارِمِ مِنَ الأَخْلاقِ وَالأَعْمَالِ، شَدِيدُ النُّفُورِ مِنْ سَفَاسِفِهَا.

وَمِنْ عَلامَةِ الْعَاقِلِ الظَّاهِرَةِ: «حُسْنُ السَّمْتِ، وَطُولُ الصَّمْتِ»(١).

وَيُعَرَّفُ الْعَاقِلُ بِأَنَّهُ: مَنْ عَقَلَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ، وَسَمَا بِنَفْسِهِ إِلَىٰ نَيْلِ رِضَاهُ.

قَالَ الْحَسَنُ - رَحِمَهُ اللهُ - : «مَا تَمَّ دِينُ عَبْدٍ -قَطُّ- حَتَّىٰ يَتِمَّ عَقْلُهُ»(٢).

---

(١) «رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ» (ص١٦).

(٢) «رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ» (ص٢٥).



وَقَالَ ابْنُ حِبَّان فِي وَصْفِ الْعَاقِلِ: «الْعَاقِلُ لا يُقَاتِلُ مِنْ غَيْرِ عُدَّةٍ، وَلا يُخَاصِمُ بِغَيْرِ حُجَّةٍ، وَلا يُصَارِعُ بِغَيْرِ قُوَّةٍ؛ لأَنَّ بِالْعَقْلِ تَحْيَا النُّفُوسُ، وَتُنَوَّرُ الْقُلُوبُ، وَتُمْضَىٰ الأُمُورُ، وَتَعْمَرُ الدُّنْيَا.

وَالْعَاقِلُ يَقِيسُ مَا لَمْ يَرَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا قَدْ رَأَىٰ، وَيُضِيفُ مَا لَمْ يَسْمَعْ مِنْهَا إِلَىٰ مَا قَدْ سَمِعَ، وَمَا لَمْ يُصِبْ مِنْهَا إِلَىٰ مَا قَدْ أَصَابَ، وَمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ بِمَا فَنِيَ، وَمَا لَمْ يَنَلْ مِنْهَا بِمَا قَدْ أُوتِيَ، وَلا يَتَّكِلُ عَلَىٰ المَالِ، وَإِنْ كَانَ فِي تَمَامِ الحَالِ؛ لأَنَّ المَالَ يَحِلُّ وَيَرْتَحِلُ، وَالْعَقْلُ يُقِيمُ وَلا يَبْرَحُ، وَلَوْ أَنَّ الْعَقْلَ شَجَرَةٌ، لَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ الشَّجَرِ، كَمَا أَنَّ الصَّبْرَ لَوْ كَانَ ثَمَرَةً، لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الثَّمَرِ»[1].

أَيْ بُنَيَّ، إِذَا صَاحَبْتَ، فَلا تُصَاحِبْ إِلاَّ مَنْ كَانَ عَقْلُهُ أَكْبَرَ مِنْ عِلْمِهِ، فَكَمْ رَأَيْنَا مِنْ أُنَاسٍ عُقُولُهُمْ دُونَ

---

(١) «رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ» (ص٢٥).



عِلْمِهِمْ، فَلَمْ يُحْسِنُوا تَصْرِيفَهُ، وَلَمْ يَضَعُوهُ فِي مَوْضِعِهِ، وَمِنْ طَرِيفِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ ابْنَ الْمُقَفَّعِ وَالْخَلِيلَ اجْتَمَعَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ يَتَحَاوَرَانِ، يَتَجَارَيَانِ، فَلَمَّا افْتَرَقَا، قِيلَ لابْنِ الْمُقَفَّعِ: كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ فَقَالَ: وَجَدْتُ رَجُلاً عَقْلُهُ زَائِدٌ عَلَىٰ عِلْمِهِ.

وَسُئِلَ الخَلِيلُ عَنْهُ، فَقَالَ: وَجَدْتُ رَجُلاً عِلْمُهُ فَوْقَ عَقْلِه.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَقَدْ صَدَقَا؛ فَإِنَّ الخَلِيلَ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِه[1] فِي خُصٍّ[2]، وَهُوَ أَزْهَدُ خَلْقِ اللهِ، وَتَعَاطَىٰ ابْنُ الْمُقَفَّعِ مَا كَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنْهُ حَتَّىٰ قُتِلَ شَرَّ قِتْلَةٍ»[3].

قُلْتُ: وَمُرَادُ أَحَدِ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ أَنَّ الخَلِيلَ مَاتَ مِنْ عِلَّةٍ لا مِنْ عَدَاوَةٍ، وَقَدْ عَاشَ زَاهِدًا، بِمَعْنَىٰ أَنَّ عَقْلَهُ كَانَ قَائِدًا لِعِلْمِهِ، وَأَمَّا ابْنُ الْمُقَفَّعِ فَكَانَ نَقْصُ عَقْلِهِ وَبَالاً

---

(١) مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ أَيْ: عَلَىٰ فِرَاشِهِ مِنْ غَيْرِ قَتْلٍ، وَلا ضَرْبٍ، وَلا غَرَقٍ، وَلا حَرَقٍ، وَخَصَّ الأَنْفَ، لأَنَّ الرُّوحَ تَخْرُجُ مِنْهُ بِتَتَابُعِ النَّفَسِ.

(٢) الخُصُّ - بِالضَّمِّ - :البَيْتُ يُسَقَّفُ بِخَشَبَةٍ، وَالجَمْعُ خِصَاصٌ وَخُصُوصٌ.

(٣) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١ / ٢٤).



عَلَيْهِ، وكَانَ عِلْمُهُ سُلَّمًا لِلزَّنْدَقَةِ[1]؛ فَقُتِلَ شَرَّ قِتْلَةٍ.

أَيْ بُنَيَّ، صُحْبَةُ الْعُقَلاءِ لِقَاحُ الْعُقُولِ، كَمَا أَنَّ مُصَاحَبَةَ قَلِيلِ الْعَقْلِ ثَمَرَتُهُ إِلَىٰ النَّقْصِ.

قَالَ ابْنُ حِبَّانَ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَالَّذِي يَزْدَادُ بِهِ الْعَاقِلُ مِنْ نَمَاءِ عَقْلِهِ هُوَ التَّقَرُّبُ مِنْ أَشْكَالِهِ، وَالتَّبَاعُدُ عَنْ أَضْدَادِهِ»[2].

وَقَالَ الإِمَامُ شُعْبَةُ: «عُقُولُنَا قَلِيلَةٌ، فَإِذَا جَلَسْنَا مَعَ مَنْ هُوَ أَقَلُّ عَقْلاً مِنَّا، ذَهَبَ ذَلِكَ الْقَلِيلُ، وَإِنِّي لأَرَىٰ الرَّجُلَ

---

(١) جَاءَ فِي «السِّيَر» لِلذَّهَبِيِّ (٦/ ٢٠٨): «رُوِيَ عَنِ الْمَهْدِيِّ قَالَ: مَا وَجَدْتُ كِتَابَ زَنْدَقَةٍ إِلاَّ وَأَصْلُهُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ».
وذَكَرَ الذَّهَبِيُّ - أَيْضًا - فِي «السِّيَر» (٦/ ٢٠٨): «عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ أَحَدُ الْبُلَغَاءِ، وَرَأْسُ الْكُتَّابِ وَأُولِي الإِنْشَاءِ، مِنْ نُظَرَاءِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ، وَكَانَ مِنْ مَجُوسِ فَارِسَ، فَأَسْلَمَ عَلَىٰ يَدِ الأَمِيرِ عِيسَى عَمِّ السَّفَّاحِ، وَكَتَبَ لَهُ وَاخْتَصَّ بِهِ، قَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ: قَالَ لَهُ: أُرِيدُ أَنْ أُسْلِمَ عَلَىٰ يَدَيْكَ بِمَحْضَرِ الأَعْيَانِ، ثُمَّ قَعَدَ يَأْكُلُ وَيُزَمْزِمُ بِالْمَجُوسِيَّةِ. فَقَالَ: مَا هَذَا؟! قَالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ غَيْرِ دِينٍ»!.
(٢) «رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ» (ص٢٥).



يَجْلِسُ مَعَ مَنْ هُوَ أَقَلُّ عَقْلاً مِنْهُ فَأَمْقُتُهُ»[1].

أَيْ بُنَيَّ، إِنَّهُ قَدْ قِيلَ: «ثَمَرَةُ الْعَقْلِ حُسْنُ الاخْتِيارِ، وَدَلِيلُهُ صُحْبَةُ الأَخْيَارِ»[2]. وَلا أَرَىٰ ثِمَارُكَ إِلاَّ قَدْ حَانَ قِطَافُهَا!.

إِذَا مَا كُنْتَ مُتَّخِذاً خَلِيلاً
فَلا تَثِقَنَّ بِكُلِّ أَخِي إِخَاءِ
فَإِنْ خُيِّرْتَ بَيْنَ النَّاسِ فَالْصَقْ
بِأَهْلِ الْعَقْلِ مِنْهُمْ وَالْحَيَاءِ
فَإِنَّ الْعَقْلَ لَيْسَ لَهُ إِذَا مَا
تَفَاضَلَتِ الْفَضَائِلُ مِنْ كِفَاءِ[3][4]

(١) «رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ» (ص٢٤، ٢٥).
(٢) «فَرَائِدُ الخَرَائِدِ فِي الأَمْثَالِ» (ص١٣٢).
(٣) كِفَاءُ الشَّيْءِ – بالكَسْرِ– مَا يَكُونُ مُكَافِئًا وَمُسَاوِيًا لَهُ.
(٤) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص١٦٨).



٢ - الدِّينُ

أَيْ بُنَيَّ، صَاحِبْ أَخَا الدِّينِ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَجِدَ مِنْهُ إِلاَّ كُلَّ خَيْرٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَرَكَةِ صُحْبَتِهِ وَمَحَبَّتِكَ لَهُ فِي اللهِ إِلاَّ أَنَّكَ تُحْشَرُ مَعَهُ، لَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الشَّرَفِ، وَلَوْ قَطَعْتَ الأَرْضَ حَافِيًا بَحْثًا عَنْ ذَلِكَ الصَّاحِبِ، لَكَانَ قَلِيلاً.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَىٰ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا، وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»**.

وَهَذَا الحَدِيثُ ـ يَا بُنَيَّ ـ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ، فَمَا فَرِحَ المُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهَذِهِ البِشَارَةِ.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦١٦٩)، وَمُسْلِم (٢٦٤٠)، وَنَحْوُهُ عِنْدَهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ مَرْفُوعًا.



فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ - رضي الله عنه -: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَىٰ السَّاعَةُ؟. قَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**».

قَالَ: لا شَيْءَ، إِلاَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ - صلى الله عليه وسلم -: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**».

قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم -، وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ.

فَهَذَا الحَدِيثُ - يَا بُنَيَّ - قَدْ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ صَالِحًا حُشِرَ مَعَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ فَاسِقًا حُشِرَ مَعَهُ؛ فَانْظُرْ - يَا بُنَيَّ - لِنَفْسِكَ، وَقَدِّمْ لَهَا مَا يَسُرُّكَ غَدًا.

---

(١) رَوَاهُ البخاريُّ (٣٦٨٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٣٩).



عَاشِرْ أَخَا الدِّينِ؛ كَي تَحْظَىٰ بِصُحْبَتِه
فَالطَّبْعُ مُكْتَسَبٌ مِنْ كُلِّ مَصْحُوبِ
كَالرِّيحِ آخِذَةً مِمَّا تَمُرُّ بِهِ
نَتْنًا مِنَ النَّتْنِ أَوْ طِيبًا مِنَ الطِّيبِ





٣ - حُسْنُ الْمُعْتَقَدِ

أَيْ بُنَيَّ، لِيَكُنْ مَنْ تُصَاحِبُ حَسَنَ الْمُعْتَقَدِ، سُنِّيًا، سَلَفِيًّا، وقَّافًا عِنْدَ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، غَيْرَ مَعْرُوفٍ بِبِدْعَةٍ، غَيْرَ مُجَالِسٍ لأَهْلِهَا.

فَإِذَا كَانَ مُبْتَدِعًا، أَوْ عُرِفَ بِمُجَالَسَةِ الْمُبْتَدِعَةِ وَالتَّرَدُّدِ عَلَيْهِمْ - فَالْبُعْدُ عَنْهُ عَيْنُ كَمَالِكَ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ لَدُنِ السَّلَفِ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا عَلَىٰ الحَذَرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُمْ، وَمِنْ مُجَالَسَتِهِمْ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللهُ -: «الَّذِي كُنَّا نَسْمَعُ وَأَدْرَكْنَا عَلَيْهِ مَنْ أَدْرَكْنَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الْكَلَامَ وَالْجُلُوسَ مَعَ أَهْلِ الزَّيْغِ» (١).

---

(١) «الإِبَانَة» لابْنِ بَطَّةَ (٢ / ٤٧٢).



وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي بَيَانِ أَقْسَامِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ الْمُخَالَطَةُ (١) :

« الْقِسْمُ الرَّابِعُ – مَنْ مُخَالَطَتُهُ الْهَلاكُ كُلُّهُ، وَمُخَالَطَتُهُ بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ السُّمِّ، فَإِن اتَّفَقَ لآكله ترياقٌ (٢)، وَإِلاَّ فَأَحْسَنَ اللهُ فيه الْعَزَاء، وَمَا أَكْثَرَ هَذَا الضَّرْبَ (٣) في النَّاسِ!، لا كَثَّرَهُمُ اللهُ، وَهُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلالة » .

وَقَالَ ابْنُ بَطَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ -: « فَاللهَ اللهَ – مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ– لا يَحْمِلَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ حُسْنُ ظَنِّه بِنَفْسِه، وَمَا عَهِدَهُ مِنْ مَعْرِفَتِه بِصِحَّة مَذْهَبِه–عَلَىٰ الْمُخَاطَرَة بِدِينِه في مُجَالَسَة بَعْضِ أَهْلِ هَذِه الأَهْوَاء، فَيَقُولُ: أَدْخُلُهُ ؛ لأُنَاظِرَهُ أَوْ لأَسْتَخْرِجَ مِنْهُ مَذْهَبَهُ؛ فَإِنَّهُمْ أَشَدُّ فِتْنَةً مِنَ الدَّجَّالِ،

---

(١) « بَدَائِعُ الفَوَائِدُ » (٢ / ٢٧٥).

(٢) التِّرْيَاق– بالكَسْرِ– : دَوَاءُ السُّمُوم .

(٣) الضَّرْب– بالفَتْحِ– : الصِّنْف، وَالجَمْعُ أَضْرُب ، وَضُرُوب .



وَكَلامُهُمْ أَلْصَقُ مِنَ الجَرَبِ، وَأَحْرَقُ لِلْقُلُوبِ مِنَ اللَّهَبِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ كَانُوا يَلْعَنُونَهُمْ وَيَسُبُّونَهُمْ، فَجَالَسُوهُمْ عَلَىٰ سَبِيلِ الإِنْكَارِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ، فَمَا زَالَتْ بِهِمُ المُبَاسَطَةُ، وَخَفِيُّ المَكْرِ وَدَقِيقُ الْكُفْرِ، حَتَّىٰ صَبَوْا إِلَيْهِمْ»(١).

قَاعِدَةٌ فِي مَعْرِفَةِ حُسْنِ المُعْتَقَدِ:

أَيْ بُنَيَّ، أَهْلُ الْبِدَعِ وَالأَهْوَاءِ يَتَكَاتَمُونَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ إِلاَّ شَيْئًا وَاحِدًا، هَيْهَاتَ أَنْ يَخْفَىٰ عَنْ عَامَّةِ النَّاسِ، فَضْلاً عَنْ كُلِّ ذِي لُبٍّ، وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ هِيَ: الأُلْفَةُ.

وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْرِفَ الرَّجُلَ الْمُبْتَدِعَ، وَكَذَلِكَ الحِزْبِيُّ الْمُتَسَتِّرُ بِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ الذَّهَبِيَّةِ (٢).

---

(١) «الإِبَانَة» (٢ / ٤٧٠).

(٢) مُسْتَنَدُ هَذِهِ القَاعِدَةِ حَدِيثُ «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ». وَسَيَأْتِي تَخْرِيجُهُ، وَالحَدِيثُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ شُرُوحِهِ فِي الحَدِيثِ عَنِ «الأُلْفَةِ»، إِنْ شَاءَ اللهُ.



قَالَ الأَوْزَاعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: «مَنْ سَتَرَ عَلَيْنَا بِدْعَتَهُ، لَمْ تَخْفَ عَلَيْنَا أُلْفَتُهُ»(١).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ الْعَلَايِيُّ:

«يَتَكَاتَمُ أَهْلُ الأَهْوَاءِ كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ التَّآلُفَ وَالصُّحْبَةَ»(٢).

«وَلَمَّا قَدِمَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - الْبَصْرَةَ، جَعَلَ يَنْظُرُ فِي أَمْرِ الرَّبِيعِ - يَعْنِي ابْنَ صَبِيحٍ -، وَقَدْرِهِ عِنْدَ النَّاسِ؛ سَأَلَ: أَيُّ شَيْءٍ مَذْهَبُهُ؟.

قَالُوا: مَا مَذْهَبُهُ إِلاَّ السُّنَّةُ.

قَالَ: مَنْ بِطَانَتُهُ؟.

---

(١) «الإِبَانَةُ» (٢/ ٤٧٩).

(٢) «الإِبَانَةُ» (٢/ ٤٧٩).

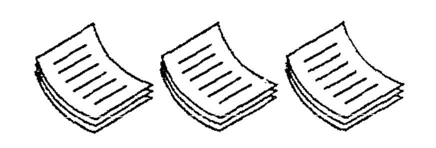


قَالوا: أَهْلُ الْقَدَرِ.

قَالَ: هُوَ قَدَرِيٌّ»[1].

وَقَالَ الْبَرْبَهَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - :

« وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ جَالِسًا مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ فَحَذِّرْهُ، وعَرِّفْهُ، فَإِنْ جَلَسَ مَعَهُ بَعْدَمَا عَلِمَ فَاتَّقِهِ؛ فَإِنَّهُ صَاحِبُ هَوًى »[2].



(١) «الإِبَانَةُ» (٢ / ٤٥٣).

(٢) «شَرحُ السُّنَّة» (ص١٢١).



٤ - التَّقْوَى

صَاحِبْ مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ؛ فَإِنَّ صُحْبَةَ مَنْ هَذَا حَالُهُ غَنِيمَةٌ، تُذَكِّرُكَ بِاللَّهِ رُؤْيَتُهُ، وَيَزِيدُ فِي عَمَلِكَ كَلامُهُ، وَيُرَغِّبُكَ فِي الآخِرَةِ عَمَلُهُ.

وَقَدْ أَرْشَدَ النَّبِيُّ - ﷺ - إِلَىٰ صُحْبَةِ التَّقِيِّ مِنَ النَّاسِ.

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - : أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: «**لا تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا، ولا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**»(١) .

قَالَ الخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- مُعَلِّقًا عَلَىٰ قَوْلِهِ -ﷺ-: «**ولا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**»: «إِنَّمَا جَاءَ هَذَا فِي طَعَامِ الدَّعْوَةِ دُونَ طَعَامِ الحَاجَةِ؛ وَذَلِكَ لأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ

(١) حَسَنٌ، رَوَاهُ أَحْمَدُ (٣ / ٣٨٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٥)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الجَامِعِ» (٧٣٤١).



وتعالى – قالَ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]، ومَعْلومٌ أن أَسْرَاهُمْ كانوا كُفَّاراً غَيْرَ مُؤْمِنِينَ ولا أَتْقِيَاءَ، وإِنَّمَا حذَّرَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – من صُحْبَةِ مَنْ لَيْسَ بِتَقِيٍّ، وَزَجَرَ عَنْ مُخَالَطَتِهِ ومُؤَاكَلَتِهِ؛ فَإِنَّ المُطَاعَمَةَ تُوقِعُ الأُلْفَةَ والمَوَدَّةَ في القُلُوبِ »[1] .

وَقَالَ – رَحِمَهُ اللهُ – : « مَعْنَاهُ: لا تَدْعُ إِلَىٰ مُؤَاكَلَتِكَ إِلاَّ الأَتْقِيَاءُ؛ لأَنَّ المُؤَاكَلَةَ تُوجِبُ الأُلْفَةَ ، وَتَجْمَعُ بَيْنَ الْقُلُوبِ، فَتَوَخَّ أَنْ يَكُونَ خُلَطَاؤُكَ وَذَوُو الاخْتِصَاصِ بِكَ أَهْلَ التَّقْوَىٰ »[2] .

أَيْ بُنَيَّ، اجْعَلْ عُدَّتَكَ – بَعْدَ تَقْوَىٰ اللهِ – صَاحِبًا تَقِيًّا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرُ مَا فِي الدُّنْيَا؛ فَقَدْ سُئِلَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَيُّ الكُنُوزِ خَيْرٌ؟ . قَالَ: « أَمَّا بَعْدَ تَقْوَىٰ اللهِ

(١) « عَوْن المَعْبُود » (٧/١٢٣).
(٢) « العُزْلَةُ والخِلْطَة » للخَطَّابيِّ (ص١٤٢).



فَالأَخُ الصَّالِحُ»(١).

وَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ: أَيُّ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلُ؟ قَالَ: «صُحْبَةُ الأَصْحَابِ، وَمُحَادَثَةُ الإِخْوَانِ إِذَا اصْطَحَبُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ، فَحِينَئِذٍ يَذْهَبُ الخِلافُ بَيْنَهُمْ، فَوَصَلُوا وَتَوَاصَلُوا، وَلا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ الأَصْحَابِ وَمُحَادَثَةِ الإِخْوَانِ إِذَا كَانُوا عَبِيدَ بُطُونِهِمْ؛ لأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا كَذَلِكَ ثَبَّطَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنِ الآخِرَةِ»(٢).

وَقَالَ رَجُلٌ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ: أَوْصِنِي. قَالَ: «اصْحَبْ أَهْلَ التَّقْوَىٰ؛ فَإِنَّهُمْ أَيْسَرُ أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ مَئُونَةً(٣)، وَأَكْثَرُهُمْ لَكَ مَعُونَةً»(٤).

---

(١) «كتَاب الإِخْوَان» (ص١٣٣)، رقم (٦١).
(٢) «كتَاب الإِخْوَان» (ص١٢٨)، وكتَاب «المُتَحَابِّين» (ص٣٠).
(٣) المَئُونَة: الثِّقَلُ.
(٤) المَرجِعُ السَّابِق (ص١٢٤).



ابْلُ الرِّجالَ إذا أَرَدْتَ إخاءَهُمْ

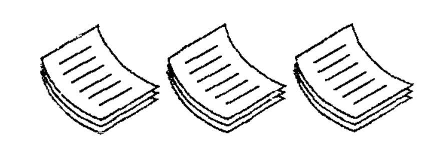
وَتَوَسَّمَنَّ أُمُورَهُمْ وَتَفَقَّدِ

فإِذَا ظَفِرْتَ بذي الأَمانَةِ والتُّقَىٰ

فَبِهِ اليَدَيْنِ- قَرِيرَ عَيْنٍ- فاشْدُدِ

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ فِي الرَّخَاءِ مُسَاعِدِ

وَإِذَا أَرَدْتَ حَقِيقَةً لَمْ تُوجَدِ





٥ - الحَسَبُ

الحَسِيبُ - يَا بُنَيَّ - هُوَ: مَنِ انْحَدَرَ نَسَبُهُ عَنْ أُصُولٍ عَرِيقَةٍ، فَصُحْبَتُهُ غَنِيمَةٌ؛ فَلَهُ مِنْ أَصْلِهِ وَأَعْرَاقِهِ دَلِيلٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا: «إِذَا غَابَ عَنْكَ أَصْلُهُ، كَانَ دَلِيلَ أَصْلِهِ فِعْلُهُ».

وَتَقُولُ: «أَصْلٌ رَاسِخٌ، وَفِعْلٌ شَامِخٌ». وَتَقُولُ: «مَنْ طَابَ أَصْلُهُ، زَكَىٰ فِعْلُهُ».

وَيَقُولُ الشَّاعِرُ:

لا تَنْظُرَنَّ إِلَىٰ امْرِئٍ مَا أَصْلُهُ
وَانْظُرْ إِلَىٰ فِعَالِهِ ثُمَّ احْكُمْ[1]

وَمَتَىٰ اجْتَمَعَ النَّسَبُ الشَّرِيفُ، وَالدِّينُ الحَنِيفُ،

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/ ٦٩٩).



وَالْعِلْمُ الْمُنِيفُ- فَذَلِكَ الشَّرَفُ الَّذِي لا شَرَفَ أَرْفَعُ مِنْهُ، أَلَيْسَ النَّبِيُّ - ﷺ- يَقُولُ -وَقَدْ سُئِلَ عَنْ أَكْرَمِ النَّاسِ- : **«فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ ، إِذَا فَقُهُوا»**(١) .

قَالَ الحَافِظُ - رَحِمَهُ اللهُ -: (قَوْلُهُ: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ» أَيْ: أُصُولاً مُخْتَلِفَةً، وَالمَعَادِنُ جَمْعُ مَعْدِنٍ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْمُسْتَقِرُّ فِي الأَرْضِ، فَتَارَةً يَكُونُ نَفِيساً ، وَتَارَةً يَكُونُ خَسِيساً، وَكَذَلِكَ النَّاسُ) (٢) .

إِذَا مَا اصْطَفَيْتَ امْرَأً فَلْيَكُنْ
شَرِيفَ النِّجَارِ(٣) زَكِيَّ الحَسَبْ
فَنَذْلُ الرِّجَالِ كَنَذْلِ النَّبَا
تِ، لا لِلثِّمَارِ وَلا لِلْحَطَبْ(٤)

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٣٥٣)، ومُسْلِم (٢٣٧٨)، واللَّفْظ لَهُ.
(٢) «الفَتْحُ» (٦/ ٦٥٧) . (٣) النَّجَارِ-بالكَسْرِ وَالضَّمِّ-: الأَصْلُ.
(٣) الْبيتَان لأَبِي الفَتْحِ البُسْتِيِّ ، كَمَا فِي «دِيوَانِهِ» (ص١٠٦).



وَصَاحِبُ الأَصْلِ أَثْبَتُ مَوَدَّةً، وَأَعْظَمُ وَفَاءً لِتَوَارُثِهِ الشَّهَامَةَ وَالمُرُوءَةَ ، وَالكَرَمَ وَمُرَاعَاةَ الجَارِ، وَعِزَّةَ الدَّارِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: «نَثَرْنَا فِي المَوَدَّةِ وَالإِخَاءِ، فَلَمْ نَجِدْ أَثْبَتَ مَوَدَّةً مِنْ ذِي أَصْلٍ».

وَقَالَ زُهَيْرٌ:

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا
تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ(١)

وَقَالَ آخَرُ - شَارِحًا تَوَارُثَهُ المَكَارِمَ - :

وَمَكْرُمَةٍ كَانَتْ سَجِيَّةَ وَالِدِي
فَعَلَّمَنِيهَا وَالِدِي فَعَلِمْتُهَا(٢)

---

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١ / ٦٩٧).
(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١ / ٦٩٨).



وَقَالَ آخَرُ :

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ

وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وُجُوهِ(١)

حِرْصُ السَّلَفُ عَلَىٰ صُحْبَةِ صَاحِبِ الحَسَبِ:

وَلَقَدْ حَرَصَ السَّلَفُ عَلَىٰ صُحْبَةِ صَاحِبِ الحَسَبِ؛ لِتَوَارُثِهِ المَكَارِمَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ، وَكَانُوا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ عَلَىٰ أُمُورِهِمْ فِي سِيَاسَةِ النَّاسِ(٢).

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/٧٠٣).

(٢) أَمَّا انْتِفَاعُ السَّلَفِ بِأَصْحَابِ الحَسَبِ فِي سِيَاسَةِ النَّاسِ فَذَلِكَ مُتَوَارَثٌ حَتَّىٰ يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، وَلَا بَأْسَ مِنْ ذِكْرِ مِثَالَيْنِ زِيَادَةً عَلَىٰ مَا يَأْتِي ذَكَرَ الرَّاغِبُ فِي «مُحَاضَرَاتِ الأُدَبَاءِ» (١/٦٩٤) قَالَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ لِإِيَاسٍ: دُلَّنِي عَلَىٰ قَوْمٍ مِنَ القُرَّاءِ أُوَالِيهِمْ. فَقَالَ: القُرَّاءُ ضَرْبَانِ: ضَرْبٌ يَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا، فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ؟، وَضَرْبٌ يَعْمَلُونَ لِلآخِرَةِ فَلَا يَعْمَلُونَ لَكَ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِأَهْلِ البُيُوتَاتِ الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ لِأَحْسَابِهِمْ فَوَالِهِمْ.
وَقَالَ الحَسَنُ - رَحِمَهُ اللهُ - لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ: عَلَيْكَ بِذَوِي الأَحْسَابِ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَتَّقُوا اسْتَحْيَوْا، وَإِنْ لَمْ يَسْتَحْيُوا تَكَرَّمُوا».



قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - : « يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الأُصُولِ فِيمَنْ يُخَالِطُهُ وَيُعَاشِرُهُ، وَيُشَارِكُهُ وَيُصَادِقُهُ، وَيُزَوِّجُهُ أَوْ يَتَزَوَّجُ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الصُّوَرِ؛ فَإِنَّ صَلاحَهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ صَلاحِ الْبَاطِنِ، أَمَّا الأُصُولُ فَإِنَّ الشَّيْخَ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَصْلِهِ، وَبَعِيدٌ مِمَّنْ لا أَصْلَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَعْنَىً مُسْتَحْسَنٌ، وإِنَّ المَرْأَةَ الحَسْنَاءَ إِذَا كَانَتْ مِنْ بَيْتٍ رَدِيءٍ ، فَقَلَّ أَنْ تَكُونَ صَيِّنَةً ، وَكَذَلِكَ - أَيْضًا - المُخَالِطُ، وَالصَّدِيقُ، وَالمُبَاضِعُ، وَالمُعَاشِرُ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تُخَالِطَ إِلاَّ مَنْ لَهُ أَصْلٌ يَخَافُ عَلَيْهِ الدَّنَسَ، فَالْغَالِبُ السَّلامَةُ، فَإِنْ وَقَعَ ذَلِكَ كَانَ نَادِراً .

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللهُ - لِرَجُلٍ: أَشِرْ عَلَيَّ فِيمَنْ أَسْتَعْمِلُ. فَقَالَ: أَمَّا أَرْبَابُ الدِّينِ فَلا يُرِيدُونَكَ، وأَمَّا أَرْبَابُ الدُّنْيَا فَلا تُرِدْهُمْ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالأَشْرَافِ؛ فَإِنَّهُمْ يَصُونُونَ شَرَفَهُمْ عَمَّا لا يَصْلُحُ .



وَقَدْ رَوَىٰ أَبُو بَكْرٍ الصُّولِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ يَحْيَىٰ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: دَعَانِي الْمُعْتَصِمُ يَوْمًا، فَأَدْخَلَنِي مَعَهُ الْحَمَّامَ، ثُمَّ خَلَا بِي، وَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فِي نَفْسِي شَيْءٌ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ،إِنَّ أَخِي الْمَأْمُونَ اصْطَنَعَ قَوْمًا فَأَنْجَبُوا[1]، وَاصْطَنَعْتُ أَنَا مِثْلَهُمْ فَلَمْ يَنْجِبُوا، قُلْتُ: وَمَنْ هُمْ؟.

قَال: اصْطَنَعَ طَاهِرًا وَابْنَهُ، وَإِسْحَاقَ وَآلَ سَهْلٍ، فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ هُمْ، وَاصْطَنَعْتُ أَنَا الأَفْشِينَ، فَقَدْ رَأَيْتَ مَا آلَ أَمْرُهُمْ، وَأَسَاشَ فَلَمْ أَجِدْهُ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ إِيتَاخُ وَوَصِيفُ.

قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَا هُنَا جَوَابٌ عَلَىٰ أَمَانٍ مِنَ الْغَضَبِ.

قَالَ: لَكَ ذَلِكَ.

قُلْتُ: نَظَرَ أَخُوكَ إِلَىٰ الأُصُولِ، فَاسْتَعْمَلَهَا، فَأَنْجَبَتْ فُرُوعًا، وَاسْتَعْمَلْتَ فُرُوعًا لا أُصُولَ لَهَا ؛ فَلَمْ تُنْجِبْ.

---

(١) أنْجَبُوا : وَلَدُوا النِّجبَاءَ الكُرَمَاءَ الحُسَبَاءَ .



فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، مُقَاسَاةُ مَا مَرَّ بِي طُولَ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ هَذَا الجَوَابِ»[١].

قَالَ أبُو تمَام:

فُـــــرُوعٌ لا تَـرِفُّ عَلَيْكَ إِلاَّ
شَهِدَتَ لَهَا عَلَىٰ طِيبِ الأُرُوْمِ[٢]
وَفِي الشَّرَفِ الحَدِيثِ دَلِيلُ صِدْقٍ
لِمُخْتَبِرٍ عَلَىٰ الشَّرَفِ القَدِيمِ[٣]

وَقَالَ آخَرُ:

وَكُلُّ أَخٍ يَقُـــــولُ: أَنَا وَفِيٌّ
وَلَكِنْ لَيْسَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ
سِـوَىٰ خِلٍّ لَهُ حَسَبٌ وَدِينٌ
فَذَاكَ لِمَا يَقُولُ هُوَ الْفَعُولُ[٤]

---

(١) «صَيْدُ الخَاطِرِ» (ص٢٠١).
(٢) الأُرُوْم: جَمْعُ أَرُومَةٍ – بالفَتْحِ والضَّمِ –، وَهُوَ الأَصْلِ.
(٣) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/ ٦٩٩).
(٤) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص١٦٩).



وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عبيدٍ الشَّاعِرُ:

وَعَــاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي
وَلَمْ يَغْتَمِرْنِي قَبْلَ ذَاكَ عَذُولُ
تَقُولُ: اتَّئِدْ لا يَدْعُكَ النَّاسُ مُمْلقًا(١)
وَتُزْرِي بِمَنْ -يَا بْنَ الْكِرَامِ- تَعُولُ
فَقُلْتُ: أَبَتْ نَفْسٌ عَلَيَّ كَرِيمَةٌ
وَطَارِقُ لَيْلٍ غَيْـرَ ذَاكَ يَقُولُ
أَلَمْ تَعْلَمِي - يَا عَمْرَكِ اللهَ - أَنَّنِي
كَـرِيمٌ عَلَىٰ حِينِ الْكِرَامِ قَلِيلُ
وَإِنِّي لأَخْـزَىٰ إِذَا قِيلَ مُـمْلقٌ
سَخِيٌّ وَأَخْزَىٰ أَنْ يُقَالَ: بَخِيلُ
فَلا تُتْبِعِي الْعَيْنَ الغَوَايَةَ، وَانْظُرِي
إِلَىٰ عُنْصُرِ الأَحْسَابِ أَيْنَ يَئُولُ(٢)

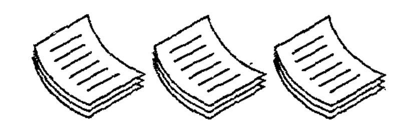
(١) الْمُمْلق: الفَقِيْر.

(٢) «الأمَالي» لأبِي عَليّ القَالِي (ص٤٩، ٥٠).



٦ - بِرُّ الْوَالِدَيْنِ

أَيْ بُنَيَّ، لا تُصَاحِبْ إِلاَّ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَاقَّ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَكَ صَاحِبًا، فَلا يَسْتَقِيمُ وُدُّهُ ، وَلا يَفِي بِعَهْدِهِ، وَمَنْ ضَيَّعَ حَقَّ وَالِدَيْهِ ، فَلَنْ يُنْتَظَرَ مِنْهُ أَنْ يَحْفَظَ حَقَّ الصُّحْبَةِ؛ فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ.





٧ - حُسْنُ الخُلُقِ

أَيْ بُنَيَّ، جَمِيلٌ أَنْ تُصَاحِبَ مَنْ كَانَ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ؛ فَإِنَّ حُسْنَ الخُلُقِ يَدُلُّ عَلَىٰ سَمَاحَةِ النَّفْسِ، وَكَرَمِ الطَّبْعِ.

وَيُعَرَّفُ حُسْنُ الخُلُقِ بِأَنَّهُ التَّخَلُّقُ بِأَخْلاقِ الشَّرِيعَةِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِ اللهِ الَّتِي أَدَّبَ بِهَا عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ.

وَأَعْظَمُ مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ الأَخْلاقِ ظَاهِراً وَبَاطِناً نَبِيُّنَا - ﷺ -، فَقَدِ امْتَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَجَمَعَ فِيهِ أَشْتَاتَ الْفَضَائِلِ بِتَمَامِهَا، وَأَبْعَدَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَنَوَّهَ بِذِكْرِ مَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ، فَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القَلَم: ٤].



فَاحْرِصْ عَلَىٰ أَنْ تُصَاحِبَ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ ؛ فَإِنَّكَ تَزْدَادُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ أَخْلاقًا إِلَىٰ أَخْلاقِكَ، وَأَدَبًا إِلَىٰ أَدبِكَ ، وَمَتَىٰ وَجَدْتَ صَاحِبَكَ عَارِيًا مِنَ الأَخْلاقِ؛ فَاحْرِصْ عَلَىٰ رَأْسِ مَالِكَ؛ فَإِنَّهَا تِجَارَةٌ لا تَبُورُ.

وَكُلُّ مَنْ لَيْسَ يَنْهَاهُ الحَيَاءُ وَلا
تَقْوَىٰ فَخَفْ كُلَّ قُبْحٍ مِنْهُ وَانْتَظِرِ
وَالنَّاسُ أَخْلاقُهُمْ شَتَّىٰ وَأَنْفُسُهُمْ
مِنْهُمْ بَعِيرٌ،وَمِنْهُمْ مُخْطِئُ النَّظَرِ





٨ - الحَيَاءُ

أَيْ بُنَيَّ، لا تُصَاحِبْ إِلاَّ مَنْ كَسَاهُ الحَيَاءُ ثَوْبَهُ؛ فَإِنَّ الصُّحْبَةَ تَدُومُ بِدَوَامِ الحَيَاءِ؛ فَإِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ، ذَهَبَ عَنْهُ كُلُّ جَمِيلُ.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(١) مِنْ حَدِيث أَبِي مَسْعُود - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: **«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَىٰ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»**.

وَهَذَا الحَدِيثُ - يا بُنَيَّ - خَرَجَ مَخْرَجَ الذَّمِّ، فَمَنْ لا يَسْتَحْيِ، دَعَاهُ تَرْكُ الحَيَاءِ إِلَىٰ أَنْ يَعْمَلَ مَا يَشَاءُ، فَلا تَأْمَنْ أَنْ يَنَالَكَ مِنْهُ بَعْضُ مَا تَكْرَهُ.

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي
وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٨٣).



فَلا وَاللهِ، مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ
وَلاَ الدُّنْيَا، إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ
يَعِيشُ المَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ
وَيَبْقَىٰ العُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

وَالحَيَاءُ - يَا بُنَيَّ - مِنَ الإِيمَانِ؛ فَاسْمَعْ إِلَىٰ نَبِيِّكَ - ﷺ - وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَيَاءُ مِن الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِن الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ**»(١).

وَاعْلَمْ - يَا بُنَيَّ - أَنَّ الصَّاحِبَ إِذَا كَانَ مُتَخَلِّقًا بِخُلُقِ الحَيَاءِ، كَانَتْ أَسْبَابُ الخَيرِ مِنْهُ مَوْجُودَةً، فَالحَيَاءُ زِمَامٌ عَنِ الحَرَامِ، وَلِجَامٌ عَنِ الآثَامِ، كَمَا قِيلَ:

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي
وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلاَّ الحَيَاءُ
فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا، وَلَكِنْ
إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ فَلا دَوَاءُ

(١) صحيح، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٠٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحُ الجَامِعِ» (٣١٩٩).



٩ - التَّوَاضُعُ

أَيْ بُنَيَّ، صَاحِبِ الْمُتَوَاضِعَ مِنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ رَفِيعُ الْقَدْرِ، قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَبِرٍّ، وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ عَلَيْهِ تَاجُ الْمُرُوءَةِ(١) وَحِلْيَةُ الشَّرَفِ؟!(٢)، وَمِنْ عَلامَةِ التَّوَاضُعِ - يَا بُنَيَّ -: أَلاَّ يَدْعُوكَ أَحَدٌ إِلَىٰ الحَقِّ إِلاَّ قَبِلْتَهُ وَلَمْ تَرُدَّهُ، وَلا تَرَىٰ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَأَيْتَ نَفْسَكَ دُونَهُ(٣).

وَالتَّوَاضُعُ مِنْ صِفَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ - سُبْحَانَهُ - بِقَوْلِهِ: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الْفُرْقَانُ: ٦٣].

---

(١) مِنْ أَمْثَالِ العَرَبِ: « تَاجُ الْمُرُوءَةِ التَّوَاضُعُ » انظر « مجمع الأمثال » (١ / ١٥١).

(٢) مِنْ أمثال العَرب - أَيْضًا - : « التَّوَاضُعُ شَبَكَةُ الشَّرَفِ » انظر « مجمع الأمثال » (١ / ١٥١).

(٣) « آدَابُ النُّفُوسِ » للحَارِث المحُاسِبي (ص٧٤).



قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ - رَحِمَهُ اللهُ - : « ذَكَرَ أَنَّ صِفَاتِهِمْ أَكْمَلُ الصِّفَاتِ، وَنُعُوتَهُمْ أَفْضَلُ النُّعُوتِ، فَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، أَيْ سَاكِنِينَ مُتَوَاضِعِينَ للهِ وَلِلْخَلْقِ، فَهَذَا وَصْفٌ لَهُمْ بِالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، وَالتَّوَاضُعِ للهِ وَلِعِبَادِهِ »(١).

وَالْمُتَكَبِّرُ - يَا بُنَيَّ - لا يُصَاحَبُ؛ لأَنَّ الْكِبْرَ دَلِيلٌ عَلَىٰ سُفُولِ النَّفْسِ وَانْحِطَاطِهَا.

وَيُعْرَفُ التَّكَبُّرُ بِأَنَّهُ: « بَطَرُ الحَقِّ (٢)، وَغَمْطُ النَّاسِ (٣) »(٤).

وَمِنْ عَلامَةِ الْكِبْرِ: « اسْتِعْظَامُ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ،

(١) « تفسير ابن سعدي » (٥/٥٩٣).
(٢) بَطَرُ الحَقِّ: هُو دَفْعُهُ وَإِنْكَارُهُ تَرَفُّعًا وَتَجَبُّرًا ، وَبَابُهُ فَرِحَ.
(٣) غَمْطُ النَّاسِ: احتقارُهُمْ ، وَبَابُهُ فَهِمَ وَضَرَبَ.
(٤) هَذَا هُو تَعْرِيفُ النَّبِيِّ - ﷺ - لِلْكِبْرِ، كَمَا فِي « صَحِيحِ مُسْلِم » (٩١)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - .



وَاسْتِحْسَانُ مَا فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ ، وَالاسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ، وَاسْتِصْغَارُهُمْ، وَالتَّرَفُّعُ عَلَىٰ مَنْ يَجِبُ التَّوَاضُعُ لَهُ »(١) .

وَلِكُلِّ شَيْءٍ - يَا بُنَيَّ - ثَمرَةٌ؛ فَثَمَرَةُ التَّوَاضُعِ المَحَبَّةُ، وَثَمَرَةُ التَّكَبُّرِ النَّفْرَةُ.

وَقِيلَ: «مَا اسْتُنْبِطَ الصَّوَابُ بِمِثْلِ الْمُشَاوَرَةِ، وَلا اكْتُسِبَتِ الْبَغْضَاءُ بِمِثْلِ الكِبْرِ».

الْكِبْرُ دَلِيلُ النَّقْصِ:

الْكِبْرُ - يَا بُنَيَّ - دَلِيلُ النَّقْصِ، وَهَلْ عَرَفَ عُلَمَاءُ النَّفْسِ عُقْدَةَ النَّقْصِ إِلاَّ بِذَلِكَ، لَكِنْ عُلَمَاءُ الإِسْلامِ قَدْ سَبَقُوهُمْ سَبْقًا بَعِيداً، وَفِي كُلِّ مَيَادِينِ التَّرْبِيَةِ.

وَالنَّاقِصُ يَرَىٰ نَفْسَهُ أَكْبَرَ مِنْ غَيْرِهِ وَيَتَشَبَّعُ بِأَكْثَرَ مِمَّا عِنْدَهُ؛ فَإِنِ اسْتَصْحَبَ التَّكَبُّرَ عِنْدَ حُصُولِهِ عَلَىٰ شَيْءٍ

(١) انظر «تَهذِيبُ الأَخْلاق» للجَاحِظ (ص٣٢).



مِنَ الدُّنْيَا ، فَقَدْ بَانَ لَكَ نَقْصُهُ، وَإِنِ اسْتَصْحَبَ التَّوَاضُعَ – وَلَو حَازَ الدُّنْيَا – دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَظَمَةِ نَفْسِهِ.

قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ: «لَمَّا عَرَفَ أَهْلُ النَّقْصِ حَالَهُمْ عِنْدَ ذُوِي الْكَمَالِ، اسْتَعَانُوا بِالْكِبْرِ؛ لِيُعَظِّمَ صَغِيرًا، وَيَرْفَعَ حَقِيرًا ، وَلَيْسَ بِفَاعِلٍ»(١).

وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ: «مَنْ كَانَتْ وِلايَتُهُ فَوْقَ قَدْرِهِ، تَكَبَّرَ لَهَا، وَمَنْ كَانَتْ وِلايَتُهُ دُونَ قَدْرِهِ، تَوَاضَعَ لَهَا»(٢).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ هذيلٍ: «مَا تَوَاضَعَ فِي وِلايَتِهِ إِلاَّ مَنْ كَبُرَ عَنْهَا، وَلا تَكَبَّرَ فِيهَا إِلاَّ مَنْ كَبُرَتْ عَلَيْهِ»(٣).

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: النَّاسُ فِي الْوِلايَةِ رَجُلانِ: رَجُلٌ

---

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٥٨).

(٢) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٦٤).

(٣) «عَيْنُ الأَدَبِ والسياسة وَزَيْنُ الحَسَبِ والرِّيَاسَة» لعليِّ بْنِ هُذَيْلٍ (ص٢٩ – ٣٠).



يُجِلُّ الْعَمَلَ بِفَضْلِهِ وَمُرُوءَتِهِ، وَرَجُلٌ يُجِلُّ بِالْعَمَلِ لِنَقْصِهِ وَدَنَاءَتِهِ؛ فَمَنْ جَلَّ عَنْ عَمَلِهِ، ازْدَادَ بِهِ تَوَاضُعًا وَبِشْرًا، وَمَنْ جَلَّ عَنْهُ عَمَلُهُ، ازْدَادَ بِهِ تَجَبُّرًا وَتَكَبُّرًا»(١).

أَيْ بُنَيَّ، تِلْكَ فَائِدَةٌ قَلَّ مَنْ تَفَطَّنَ لَهَا، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ عَجَبٌ، وَإِنَّمَا الْعَجَبُ أَنَّ النَّاسَ لا يَعْرِفُونَ النَّاقِصَ لأَوَّلِ وَهْلَةٍ؛ لِهَذَا كَانَتِ الثِّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزًا.

وَقَدْ قِيلَ: «احْذَرْ - رَحِمَكَ اللهُ - مَنْ قَرُبَ مِنْكَ، وَقَرُبْتَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ بَعُدُوا مِنْكَ، وَبَعُدْتَ مِنْهُمْ سَلِمُوا مِنْكَ وَسَلِمْتَ مِنْهُمْ»(٢).

وَقِيلَ:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ

لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ(٣)

---

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٦٤).
(٢) «آدَابُ النُّفوسِ» (ص٧٤).
(٣) «عَيْن الأَدَبِ والسياسة وَزَيْن الحَسَب والرِّيَاسَة» (ص٥٥).



وَقِيلَ:

احْــــذَرْ عَـــــدُوَّكَ مَـــــرَّةً

وَاحْــذَرْ صَــدِيقَكَ أَلْفَ مَــرَّهْ

فَلَرُبَّـمَـــا انْقَلَبَ الصَّــدِيقُ

فَكَانَ أَعْلَمَ بِالمَضَـــــرَّهْ[1]

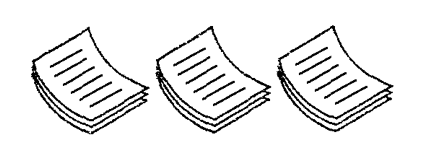
وَقَالَ وَلِيْد الرسمي:

وَكُلُّ الَّذِي أَدْرِيه أَنَّ تَجَــرُعِي

كئُوسِ المَرَارَةِ كَانَ مِنْ أَحْبَابِي

فَيَا رَبِّ عِلْمُكَ بالقُلُوبِ وَأَهْلِهَا

يُرِيْكَ مَدَىٰ حُبِّي وَبُغْض صَحَابِي



(١) «صَيْدُ الخَاطِرِ» لابْنِ الجَوْزِيِّ (ص٦١٦).



١٠ - عُلُوُّ الْهِمَّة

أَيْ بُنَيَّ، لا تُصَاحِبْ إِلاَّ عَالِيَ الهِمَّةِ؛ لأَنَّ عَالِيَ الهِمَّةِ يَسْتَخِفُّ بِالمَرْتَبَةِ السُّفْلَىٰ - أَوِ المَرْتَبَةِ الوُسْطَىٰ - مِنْ مَعَالِي الأُمُورِ؛ فَلا يَهْدَأُ لَهُ بَالٌ، وَلا يَقَرُّ لَهُ قَرَارٌ إِلاَّ حِينَ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي أَسْمَىٰ مَنْزِلَةٍ، وَأَقْصَىٰ غَايَةٍ(١).

وَمِنْ دُرَرِ العَلاَّمَةِ ابْنِ القَيِّمِ قَوْلُه :

« مَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ، وَخَشَعَتْ نَفْسُهُ اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ، وَمَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ، وَطَغَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ »(٢).

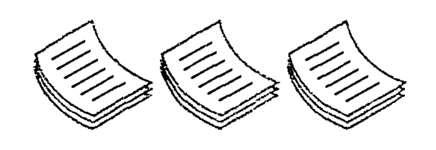
وَلا يَرْضَىٰ لِصَاحِبِهِ إِلاَّ مَا يَرْتَضِيهِ لِنَفْسِهِ، فَلا يَزَالُ

(١) انظر « رَسَائِلُ الإِصْلاح » (٢ / ٨٦ - ٨٨).
(٢) انظر « الفَوَائِدُ » (ص ٢١١).



يَحْمِيهِ بِسِيَاطِ الْمَلَامِ وَالتَّأْنِيبِ ، حَتَّىٰ يَطِيرَ طَيَرَانَهُ، فَلا يَزَالُ يَحْدُو بِهِ.

كُنْ نَاسِكًا تَبَتُّلاً
أَوْ رَائِسًا تَبَجُّلا
وَعَدِّ عَنْ مُحَمَّقٍ
قَصَّرَ عَنْ أَنْ يَنْبُلا
يَصُدُّهُ قُعُودُهُ
وَعَجْزُهُ عَنِ الْعُلاَ (١)



(١) «دِيوَانُ أَسلاكِ الجَوَاهِرِ» (ص٣٠٢) لِلشَّوْكَانِيِّ.



بعض صفات خلاء السوء

١ - اللؤم

اللُّؤْمُ - يَا بُنَيَّ - ضِدُّ الْكَرَمِ[١]، فَهُوَ اسْمٌ لِلأَخْلاقِ وَالأَفْعَالِ المَذْمُومَةِ الَّتِي تَظْهَرُ مِنَ اللَّئِيمِ، وَكُلُّ شَيْءٍ خَبُثَ فِي بَابِهِ فَهُوَ لُؤْمٌ، كَمَا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ شَرُفَ فِي بَابِهِ فَهُوَ كَرَمٌ[٢].

فَالْكَرَمُ صِفَةٌ مُلازِمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَالفُجُورِ خَلَّةٌ طُبِعَ عَلَيْهَا اللَّئِيمُ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «**الْمُؤْمِنُ غِرٌّ[٣] كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ[٤] لَئِيمٌ**»[٥].

(١) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (٥/٢٢٦).
(٢) «مُفْرَدَاتُ اللُّغَةِ» للراغب (ص٤٢٩).
(٣) «الغِرُّ - بالكَسْرِ - الجَاهِلُ بالشَّرِّ الغَافِل عَنْهُ، والجَمْعُ أَغْرَارٌ وغِرَارٌ.
(٤) الخَبُّ - بالفَتْحِ ويُكْسَرُ - الخَدَّاعُ المُفْسِدُ.
(٥) حَسَنٌ، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٧٩٠)، وَحَسَّنَه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٣٥).



وَاللَّئِيمُ – يَا بُنَيَّ – لَيْسَ لَهُ عَهْدٌ ، وَلا أَمَانَةٌ ، وَلا دِينٌ ، وَلا حُرْمَةٌ ، خَبِيثُ الطَّبْعِ،تَخَالُهُ حَقُودًا، حَسُودًا، شَامِتًا، بَاغِيًا، سَاهِيًا، فَاجِرًا، فَخُورًا، كَاذِبًا، مَلُولاً، صِفَاتٌ إِنْ رَأَيْتَهَا مُجْتَمِعَاتٍ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ.

أَيْ بُنَيَّ، لَوْ شِئْتَ لَقُلْتُ لَكَ كَلِمَةً وَاحِدَةً: «الْزَمِ الْكَرِيمَ، وَتَجَافَ عَنِ اللَّئِيمِ تَنْفَرِدْ بِالرَّاحَةِ»[1].

لأَنَّ الكَرَمَ :اسْمٌ للأَخْلاقِ وَالأَفْعَالِ المَحْمُودَةِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الصَّاحِبُ الصَّالِحُ، وَاللُّؤْمُ الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ دُخَلاءُ السَّوْءِ بِالضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ .

أَيْ بُنَيَّ، دَعِ اللَّئِيمَ يَعْبُرُ وَلا تَتَعَرَّضْ لَهُ؛ فَإِنَّكَ مَتَىٰ حَرَّكْتَهُ حَرَّكْتَ جِيفَةً، فَلَوْ تَوَحَّشْتَ فِي الرُّبْعِ[2] ، فَلَيْسَ ثَمَّ وَحْشَةٌ أَشَدُّ مِنَ اللَّئِيمِ.

(١) أَيْ: أَنِّي لَوْ شِئْتُ اكْتَفَيْتُ بِتِلْكَ الكَلِمَاتِ عَنْ كِتَابَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ.
(٢) **الرُّبْع**: أَيْ صَحَرَاء الرُّبْعِ الخَالِي،تَقَعُ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ لِلْيَمَنِ .



وَمِنْ غُرَرِ الحِكَمِ: «قَدْ تُكْتَسَبُ الأَخْلاقُ مِنْ مُعَاشَرَةِ الْكِرَامِ، وَفَسَادُهَا مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّئَامِ، وَرُبَّ طَبْعٍ كَرِيمٍ أَفْسَدَتْهُ مُعَاشَرَةُ الأَشْرَارِ، وَطَبْعٍ لَئِيمٍ أَصْلَحَتْهُ مُصَاحَبَةُ الأَخْيَارِ»(١).

صُحْبَةُ اللِّئَامِ مِحْنَةُ الكِرَامِ:

أَيْ بُنَيَّ، التَّارِيخُ حَافِلٌ بِذِكْرِ مِحْنَةِ الْكُرَمَاءِ حِينَ يَقْتَرِنُ أَحَدُهُمْ بِرَجُلٍ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ، وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لأَنَّهُمْ قَدَّمُوا الصُّحْبَةَ قَبْلَ التَّجْرِبَةِ، فَلَوْ أَنَّهُمْ قَدَّمُوا مَا أَخَّرُوا، لَكَانُوا فِي ذِمَّةِ الحَمْدِ والسَّلامَةِ.

فَهَذَا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ كَتَبَ لِصَدِيقٍ لَهُ - بَعْدَ أَنْ لاَحَتْ لَهُ مِنْهُ لاَئِحَةٌ مِنْ لُؤْمٍ - :«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي لا أَعْرِفُ لِلْمَعْرُوفِ طَرِيقًا أَوْعَرَ مِنْ طَرِيقِهِ إِلَيْكَ؛ فَالمَعْرُوفُ

(١) «حِكَم وَأَخْلاق عَرَبِيَة» لمحمَّدٍ المَكِّي بْنِ الحُسَيْنِ (ص ٤٠، ٤١).



لَدَيْكَ ضَائِعٌ، وَالشُّكْرُ عِنْدَكَ مَهْجُورٌ، وَإِنَّمَا غَايَتُكَ فِي الْمَعْرُوفِ أَنْ تَحْقِرَهُ، وَفِي وَلِيِّهِ أَنْ تَكْفُرَهُ »(١).

وَكَتَبَ الْعَتَّابِيُّ لِصَدِيقٍ لَهُ: « تَأَتَّيْنَا إِفَاقَتَكَ مِنْ سَكْرَتِكَ ، وَتَرَقَّبْنَا انْتِبَاهَكَ مِنْ رَقْدَتِكَ، وَصَبَرْنَا عَلَىٰ تَجَرُّعِ الْغَيْظِ فِيكَ، حَتَّىٰ بَانَ لَنَا الْيَأْسُ مِنْ خَيْرِكَ، وَكَشَفَ لَنَا الصَّبْرُ عَنْ وَجْهِ الْغَلَطِ فِيكَ، فَهَأَنَا أَنَا قَدْ عَرَفْتُكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ فِي تَعَدِّيكَ لِطَوْرِكَ ، وَاطِّرَاحِكَ حَقَّ مَنْ غَلِطَ فِي اخْتِيَارِكَ!! »(٢).

وَكَتَبَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ صَدِيقٍ لَهُ -بَعْدَ أَنْ ذَاقَ مِنْهُ مَرَارَةَ اللَّوْمِ-: « إِنَّ مَوَدَّةَ الأَشْرَارِ مُتَّصِلَةٌ بِالذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ، تَمِيلُ مَعَهُمَا، وَتَتَصَرَّفُ فِي آثَارِهِمَا، وَقَدْ كُنْتُ أُحِلُّ مَوَدَّتَكَ بِالْمَحَلِّ النَّفِيسِ، وَأُنْزِلُهَا بِالْمَنْزِلِ الرَّفِيعِ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ ذِلَّتَكَ

(١) « العَقْدُ الفَرِيْد » (٤ / ٣١٩).
(٢) « العَقْدُ الفَرِيْد » (٤ / ٣٢٠).



عِنْدَ الْقِلَّةِ، وَضَرَعَكَ عِنْدَ الحَاجَةِ، وَتَغَيُّرَكَ عِنْدَ الاسْتِغْنَاءِ، وَاطِّرَاحَكَ لإِخْوَانِ الصَّفَاءِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَقْوَىٰ أَسْبَابِ عُذْرِي فِي قَطِيعَتِكَ عِنْدَ مَنْ يَتَصَفَّحُ أَمْرِي وَأَمْرَكَ بِعَيْنِ عَدْلٍ لا يَمِيلُ إِلَىٰ هَوَىً ، وَلا يَرَىٰ الْقَبِيحَ حَسَنًا »(١).

تِلْكَ – يَا بُنَيَّ – شَكْوَىٰ مَنْ ذَاقَ المَرَارَةَ، وَالسَّعِيدُ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ.

كَمَا قِيلَ:

« تَعِسَتْ مُقَارَنَةُ اللَّئِيمِ؛ فَإِنَّهَا
شَرَقُ النُّفُوسِ ،وَمِحْنَةُ الْكُرَمَاءِ
أَنَا فِي زَمَنٍ (قُلَّبٍ)(٢) وَمَعَاشِرٍ
يَتَلَوَّنُونَ تَلَوُّنَ الحِرْبَاءِ

---

(١) « العَقْدُ الفَرِيْد » (٤ / ٣٢٠).

(٢) فِي « الدِّيوان » (غَادر) فأصلحها محمد بن إبراهيم الحمد، كَمَا في =



قَـدْ أَصْبَـحُـوا لِلدَّهْرِ سُبَّـةَ نَاقِمٍ
مِنْ كُـلِّ مَـصْـدَرِ مِـحْنَـةٍ وَبَلاءِ
وَأَشَـدُّ مَـا يَلْقَىٰ الْفَـتَىٰ مِنْ دَهْرِهِ
فَـقْـدُ الكِرَامِ وَصُـحْـبَـةُ اللُّؤَمَـاءِ

وَاعْلَمْ - يَا بُنَيَّ - أَنَّكَ مَهْمَا تَوَسَّلْتَ إِلَيْهِ بِأَسْبَابِ الأَمَلِ بُغْيَةَ صَلاحِهِ ، فَلا يُرْضِيهِ إِلاَّ ذِلَّتُكَ، وَأَنْ تُقَسَّمَ اللاَّئِمَـةُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَلَسْتَ بِفَاعِلٍ؛ لأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ شَكْلِهِ ، وَهُوَ يَرُومُ مِثْلَهُ، فَهُوَ الدَّاءُ الَّذِي لا دَوَاءَ لَهُ.

كَمَا قِيلَ:

لِـكُـلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُـسْـتَـطَـبُّ بِـهِ
إِلاَّ الحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا[1]

= كتابه «الهمَّة العَاليَة» إِلَىٰ (قُلّب)؛لأنَّ كَلمَة (غَادر) خَطَأٌ لا يَجُوز؛ لأنَّ مَا حَصَلَ فِي الزَّمَنِ فَهُوَ مِنَ الله - سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ - ، فَمَنْ سَبَّهُ فَقَدْ سَبَّ اللهَ . انظر «أَلْفَاظ وَمَفَاهِيم» لابْن عُثَيْمِين (ص٥٠).

(١) انظر «دِيوَان البَارُودِيِّ» (ص٣١).



وَلَوْ حَاوَلْتَ نَشْرَ مَعْرُوفكَ عِنْدَهُ ، وَأَحْسَنْتَ لَهُ الدَّهْرَ كُلَّهُ لَمْ تَرَ مِنْهُ إِلاَّ الجُحُودَ وَنُكْرَانَ الجَمِيلِ، وَلا يَزَالُ يَعُودُ أَوَّلُهُ عَلَىٰ آخِرِهِ، كَمَا قَالَ مَنْ عَايَنَهُ وَخَبَرَهُ أَبُو الطَّيِّبِ:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ
وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا(١)
وَوَضْعُ النَّدَا (٢)فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلا
مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَا

الانْقِبَاضُ عَنِ اللِّئَامِ:

أَيْ بُنَيَّ، إِذَا كَانَ الاسْتِرْسَالُ(٣) مَعَ كُلِّ أَحَدٍ خِلافَ الحَزْمِ، وَهُوَ مَعَ اللِّئَامِ عَجْزٌ؛ فَلا يَصْلُحُ الاسْتِرْسَالُ إِلاَّ

(١) لَقَدْ صَدَقَ – رَحِمَهُ اللهُ – فَإِنَّ «أَصْلَ كُلِّ عَدَاوةِ الصَّنِيعَةُ إِلَىٰ (اللِّئَام) «الأَنْذَال» كَمَا قَالَ الشَّافعيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – «تَهْذِيبُ الآدَابِ الشَّرعِيَة» لابْنِ مُفْلِحٍ (ص٤٢٦).
(٢) النَّدَا – بزِنَة الفَتَىٰ – : الجُوْد وَالكَرَم .
(٣) الاسْتِرْسَالُ يَكُونُ فِي كُلِّ شَيءٍ يَكونُ فِيهِ الاسْتِرْسَالُ : كَالمَزْحِ، والحِبِّ ،والبُغْضِ ، ونَحْوِ ذَلِكَ.



لِثِقَةٍ، وَفِي خَلْوَةٍ؛ لأَنَّ الاسْتِرْسَالَ أَمَامَ الْعَامَّةِ إِنَّمَا يَأْتِي مِنْ تَرْكِ التَّلَمُّحِ لِلْعَوَاقِبِ.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: «إِيَّاكَ وَسَقْطَةَ الاسْتِرْسَالِ؛ فَإِنَّها لا تُسْتَقَالُ»(١).

وَقِيلَ: «ضِنَّ بِالاسْتِرْسَالِ مِنْكَ، حَتَّىٰ تَجِدَ لَهُ مُسْتَحِقًّا»(٢).

أَيْ بُنَيَّ، النَّاسُ جُبِلُوا عَلَىٰ الْقُرْبِ مِمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُمْ، وَالْبُعْدِ عَمَّنْ قَرُبَ مِنْهُمْ، فَلا تَدَعْ هَذِهِ الْفَائِدَةَ تَشْرُدُ عَنْكَ؛ فَإِنَّكَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا أَوْقَاتَكَ كُلَّهَا، وَمَعَ كُلِّ أَحَدٍ.

وَمِنْ غُرَرِ الْفَوَائِدِ: «إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْكَ مُقْبِلٌ بِوُدِّهِ، فَسَرَّكَ أَلاَّ يُدْبِرَ عَنْكَ - فَلا تُكْثِرِ الإِقْبَالَ عَلَيْهِ، فَالإِنْسَانُ شَأْنُهُ التَّبَاعُدُ مِمَّنْ قَرُبَ مِنْهُ، وَالدُّنُوُّ مِمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ»(٣).

---

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٣١).

(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٣١).

(٣) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/ ٥٤٥).



أَيْ بُنَيَّ، لَيْسَ المُرادُ أَنْ تَنْقَبِضَ عَنِ النَّاسِ،حَتَّىٰ تَصِيرَ مُتَزَمِّتًا، كَلاَّ، فَمَا هَذَا أَرَدْتُ، وَلَكِنَّ التَّوَسُّطَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا عَيْنُ كَمَالِكَ؛ فَقَدْ قِيلَ: «الإِفْرَاطُ فِي التَّوَاضُعِ يُوجِبُ المَذَلَّةَ، وَالإِفْرَاطُ فِي المُؤَانَسَةِ يُوجِبُ المَهَانَةَ»(١).

وَقِيلَ: «مِنَ التَّوَاضُعِ مَا يَضَعُ».

وقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ: «الانْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ لِلْعَدَاوَةِ، وَالانْبِسَاطُ إِلَيْهِمْ مَجْلَبَةٌ لِقُرَنَاءِ السَّوْءِ»(٢).

وَمِنْ جَمِيلِ مَا قِيلَ فِي الاسْتِرْسَالِ:

إِذَا مَا عَمَمْتَ النَّاسَ بِالأُنْسِ لَمْ تَزَلْ

لِصَاحِبِ سَوْءٍ مُسْتَفِيدًا وَكَاسِبَا

فَإِنْ تُقْصِهِمْ يَرْمُوكَ عَنْ ظَهْرِ بِغْضَةٍ

فَكُنْ خِلْطًا إِنْ شِئْتَ أَوْ كُنْ مُجَانِبَا

---

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/٥٤٥).

(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/٣١).



وَلا تَنْتَبِذْ عَنْهُـمْ وَلا تَدْنُ مِنْهُمُ
وَكُنْ أَمْـرًا بَيْـنَ ذَلِكَ مُـقَـارِبا(١)

أَيْ بُنَيَّ، قَـدْ يَحْـسُنُ أَنْ تَكُونَ مَعَ اللِّئَامِ لِلانْقِبَـاضِ أَقْرَبَ مِنْكَ لِلاسْتِرْسَالِ؛لأَنَّهُـمْ لا يَعْرِفُونَ قَدْرَكَ إِلاَّ بِذَلِكَ، فَقَدْ قِيلَ:

وَمَـا لِي وَجْـهٌ فِي اللِّئَـامِ وَلا يَدٌ
وَلَكِنَّ وَجْهِيَ فِي الْكِرَامِ عَرِيضُ
أَهَشُّ إِذَا لاقَـيْـتُـهُـمْ وَكَـأَنَّنِي
إِذَا أَنَا لاقَـيْتُ اللِّئَـامَ مَـرِيضُ(٢)

وَقَالَ آخَرُ:

فِيَّ انْقِـبَـاضٌ وَحِـشْـمَـةٌ، فَـإِذَا
صَـادَفْتُ أَهْلَ الْوَفَـاءِ وَالْكَـرَمِ

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٣١).
(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٣٢).



أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَىٰ سَجِيَّتِهَا

وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمِ[1]



(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/٣٢).



٢ - تَرْكُ الصَّلاةِ

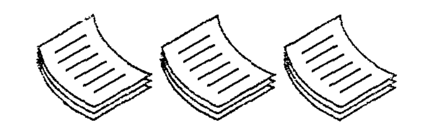
أَيْ بُنَيَّ، إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَهَاوَنُ بِالصَّلاةِ- وَلَوْ صَلاةً وَاحِدَةً- فَاغْسِلْ يَدَيْكَ مِنْهُ، وَلا تَعُدْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ رَجُلُ سَوْءٍ؛ فَالصَّلاةُ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُهُ مَعَ رَبِّهِ وَخَالِقِهِ وَرَازِقِهِ مِنَ الْجُحُودِ وَنُكْرَانِ الْجَمِيلِ، أَفَتَرْجُو أَنْ يَكُونَ حَالُهُ مَعَكَ عَلَى أَحْسَنِ الأَحْوَالِ وَأَتَمِّهَا ؟!.

يَا بُنَيَّ، إِنَّ الْقَلْبَ مَكَانُ تَعْظِيمِ الرَّبِّ - جَلَّ جَلالُهُ -، فَإِذَا لَمْ تُعْمِرْهُ بِطَاعَةِ الرَّحْمَنِ، كَانَ لِلشَّيْطَانِ مِنْهُ نَصِيبٌ، بَلْ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِ، حَتَّى يَصِيرَ صَاحِبُهُ مِنْ جُنُودِهِ وَأَعْوَانِهِ.

وَإِذَا رَأَى إِبْلِيسُ غُرَّةَ وَجْهِهِ
حَيَّا وَقَالَ : فَدَيْتُ مَنْ لَمْ يُفْلِحِ



وَإِذَا كَانَ العِلْمُ - يَا بُنَيَّ - قَدْ لَزِمَ بِعَزْلِ المَرِيضِ عَنِ الصَّحِيحِ، ولاسِيَّمَا إِذَا كَانَ المَرَضُ مُعْدِيًا؛ فَعَزْلُ مَرِيضِ الدِّينِ أَوْلَىٰ مِنْ عَزْلِ مَرِيضِ الْبَدَنِ.





٣ - الحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا

أَيْ بُنَيَّ، لا تُصَاحِبْ حَرِيصًا عَلَىٰ الدُّنْيا، وَلا يَكُنْ هَمُّكَ مُجَالَسَةَ أَهْلِهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُوكَ للتَّطَلُّعِ إِلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ.

وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - قَدْ أَمَرَ بالإِعْرَاضِ عَمَّنْ هَذَا حَالُهُ، فَقَالَ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ﴾ [النَّجْمُ: ٢٩].

وَالنَّبِيُّ - ﷺ - كَرِهَ لأُمَّتِهِ النَّظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ، وَلاسِيَّمَا مَتَىٰ خَشِيَ الْمَرْءُ أَنْ يَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ، فَالصُّحْبَةُ أَوْلَىٰ بتَرْكِهَا.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «**إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ مَنْ فُضِّلَ**



عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ». وَزَادَ مُسْلِمٌ: «فَهُوَ أَجْدَرُ أَلاَّ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ»[1].

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: «هَذَا الحَدِيثُ جَامِعٌ لِمَعَانِي الخَيْرِ؛ لأَنَّ المَرْءَ لاَ يَكُوْنُ بِحَالٍ تَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ مُجْتَهِداً فِيهَا - إِلاَّ وَجَدَ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، فَمَنْ طَلَبَتْ نَفْسُهُ اللَّحَاقَ بِهِ اسْتَقْصَرَ حَالَهُ، فَيَكُونُ أَبَداً فِي زِيَادَةٍ تُقَرِّبُهُ مِنْ رَبِّهِ، وَلا يَكُونُ عَلَىٰ حَالٍ خَسِيسَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، إِلاَّ وَجَدَ مِنَ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَخَسُّ حَالاً مِنْهُ، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِي ذَلِكَ، عَلِمَ أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ وَصَلَتْ إِلَيْهِ دُونَ كَثِيرٍ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ أَوْجَبَهُ، فَيُلْزِمُ نَفْسَهُ الشُّكْرَ، فَيَعْظُمُ اغْتِبَاطُهُ بِذَلِكَ فِي مَعَادِهِ»[2].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).

(٢) «فَتْحُ البَارِي» (١١ / ٣٣٠).



فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ - يَا بُنَيَّ - فَاصْحَبْ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فِي الْعِلْمِ والدِّينِ، وَمَنْ هُوَ دُونَكَ فِي الدُّنْيَا.

فَقَدْ قِيلَ: «إِذَا عَلِمْتَ فَلا تُفَكِّرْ فِي كَثْرَةِ مَنْ دُونَكَ مِنَ الجُهَّالِ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَىٰ مَنْ فَوْقَكَ مِنَ الْعُلَمَاءِ»(١).

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُتْبَةَ: «صَحِبْتُ الأَغْنِيَاءَ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا أَكْثَرَ هَمًّا مِنِّي؛ أَرَىٰ دَابَّةً خَيرًا مِنْ دَابَّتِي، وَثَوْبًا خَيْرًا مِنْ ثَوْبِي، وصَحِبْتُ الْفُقَرَاءَ، فَاسْتَرَحْتُ».

وَقَالَ ابْنُ الْعَمِيدِ:

مَنْ شَاءَ عَيْشًا هَنِيئًا يَسْتَفِيدُ بِهِ
فِي دِينِهِ ثُمَّ فِي دُنْيَاهُ إِقْبَالا
فَلْيَنْظُرَنَّ إِلَىٰ مَنْ فَوْقَهُ أَدَبًا
وَلْيَنْظُرَنَّ إِلَىٰ مَنْ دُونَهُ مَالا(٢)

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٧١).
(٢) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٧١).



٤ - النَّمِيمَةُ

أَيْ بُنَيَّ، النَّمَّامُ لا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا، وَكَذَلِكَ الْمُغْتَابُ؛ فَإِنَّهُ لا يَزَالُ يَقَعُ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ، وَيُسْمِعُكَ مَا تَكْرَهُ، وَلا يَزَالُ هَذَا دَأْبَهُ، حَتَّىٰ تُصْبِحُ الْغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ عِنْدَكَ كَالْعَسَلِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُرَّةً كَالْعَلْقَمِ.

وَقَدْ قِيلَ: «إِيَّاكَ وَمُجَالَسَةَ الشِّرِّيرِ؛ فَإِنَّ طَبْعَكَ يَسْرِقُ مِنْ طَبْعِهِ، وَأَنْتَ لا تَدْرِي»(٢).

فَاعْرِضْ - يَا بُنَيَّ - عَمَّنْ هَذَا حَالُهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - يَقُولُ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإِسْرَاءُ: ٣٦].

وَيَقُولُ: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأَنْعَامُ: ٦٨].

---

(١) «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» للرَّاغِب الأصبهانيِّ (ص١٩٣).



وَيَقُولُ - سُبْحَانَهُ - فِي وَصْفِ عِبَادِهِ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القَصَص: ٥٥].

فَمِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ وَغَيْرِهَا - يَا بُنَيَّ - تَعْلَمْ أَنَّ الْتِفَاتَ الْفُؤَادِ وَالسَّمْعَ لِلْغِيْبَةِ مَسْئُولِيَّةٌ نُحَاسَبُ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَنَفْهَمُ مِنْهَا - أَيْضًا - تَحْرِيمَ الجُلُوسِ إِلَىٰ الْمُغْتَابِينَ، وَأَنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ الاسْتِمَاعِ إِلَىٰ الْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَمَتَىٰ وَافَقْتَهُ - يَا بُنَيَّ - عَلَىٰ قَوْلِه ،وَأَعَرْتَهُ سَمْعَكَ ، فَأَنْتَ -لاشكَّ- شَرِيكُهُ فِي الإِثْمِ ، كَمَا قِيلَ:

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقَبِيحِ
كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهْ
فَإِنَّكَ عِنْدَ سَمَاعِ الْقَبِيحِ
شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهْ



٥ - التَّلَوُّنُ

أَيْ بُنَيَّ، ذُو الوَجْهَيْنِ لاَ يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا ، وَحَقِيقَةُ ذِي الوَجْهَيْنِ - يَا بُنَيَّ - هُوَ : الَّذِي يَأْتِي كُلَّ إِنْسَانٍ بِمَا يُرْضِيهِ ، وَيَلْبَسُ لِكُلِّ حَالاتٍ لَبُوسَهَا ، كَمَا قِيلَ:

يَدُورُ مَعَ الزُّجَاجَةِ حَيْثُ دَارَتْ
وَيَلْبَسُ لِلسِّيَاسَةِ أَلْفَ لِبْسِ
فَعِنْدَ المُسْلِمِينَ يُعَدُّ مِنْهُمْ
وَيَأْخُذُ سَهْمَهُ مِنْ كُلِّ خُمْسِ
وَعِنْدَ المُلْحِدِينَ يُعَدُّ مِنْهُمْ
وَعَنْ مَارْكِسٍ يَحْفَظُ كُلَّ دَرْسِ
وَعِنْدَ الإِنْجِلِيزِ يُعَدُّ مِنْهُمْ
وَفِي بَارِيسَ مَحْسُوبٌ فَرَنْسِيّ



وَذُو الوَجْهَيْنِ يَأْتِيكَ يَحْلِفُ لَكَ أَنَّهُ مَعَكَ، وَعَلَىٰ رَأْيِكَ، وَيَأْتِي غَيْرَكَ فَيُظْهِرُ لَهُ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لَكَ.

قَالَ أَحَدُهُمْ:

أَنَا كَالمِرْآةِ أَلْقَىٰ   كُلَّ وَجْهٍ بِمِثَالِهِ

وَقَدْ يَذُمُّكَ عِنْدَهُ ،وَيَذُمُّ غَيْرَكَ عِنْدَكَ،وَهَذَا غَايَةُ السُّقُوطِ.

يَا مَنْ تَلَوَّنَ فِي الطِّبَاعِ أَمَا تَرَىٰ

وَرَقَ الْغُصُونِ إِذَا تَلَوَّنَ يَسْقُطُ

وَأَنْتَ – يَا بُنَيَّ – بِفِطْرَتِكَ تَنْفِرُ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ ، فَلا تَرْتَاحُ لَهُ نَفْسُكَ ، وَلا تُعِيرُهُ اهْتِمَامَكَ وَحَالَكَ.

إِلَيْكَ عَنِّي فَلَسْتُ مِمَّنْ إِذَا اتَّقَىٰ

عِضَاضَ الأَفَاعِي نَامَ فَوْقَ الْعَقَارِبِ

وَالنَّبِيُّ – ﷺ – حَذَّرَ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ النَّاسِ،



وَبَيْنَ حَالَهُ؛ لِيَحْذَرَهُ النَّاسُ ، وَلِيُحَذِّرُوا مِنْ عَمَلِه .

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «**تَجِدُ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ**».

وَوَصَفَ أَحَدُهُمْ صَاحِبًا لَهُ ، فَقَالَ: «مَوَدَّتُهُ مُتَنَقِّلَةٌ كَتَنَقُّلِ الأَفْيَاءِ[2]، وَأُخُوَّتُهُ مُتَلَوِّنَةٌ كَتَلَوُّنِ الحِرْبَاءِ»[3].

قُلْ لِلَّذي لَسْتُ أَدْرِي مِنْ تَلَوُّنه
أَنَاصِحٌ أَمْ عَلَىٰ غِشٍّ يُدَاجِينِي؟[4]
تَغْتَابُنِي عِنْدَ أَقْوَامٍ ، وَتَمْدَحُنِي
فِي آخَرِينَ،وكُلٌّ مِنْكَ يَأْتِينِي[5]

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦).
(٢) الأَفيَاء: جَمْعُ فَيْءٍ - بِالفَتْحِ - وَهُوَ مَا كَانَ شَمْسًا فَيَنْسَخُهُ الظِّلُّ.
(٣) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣ / ٤٠).
(٤) المُدَاجَاة : المُدَارَاة وَالمُلاطَفَة .
(٥) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣ / ٤٠).

وَكَانَ السَّلَفُ أَشَدَّ نُفُورًا مِمَّنْ عُرِفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ النَّاسِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ عُرْوَةَ - رَحِمَهُ اللَّه - : «لأَنْ يَكُونَ لِي نِصْفُ وَجْهٍ، وَنِصْفُ لِسَانٍ عَلَىٰ مَا فِيهِمَا مِنْ قُبْحِ المَنْظَرِ، وَعَجْزِ المَخْبَرِ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ ذَا وَجْهَيْنِ، وَذَا لِسَانَيْنِ، وَذَا قَوْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ» (١).

وَقَدْ تَتَابَعَتِ الشَّكْوَىٰ مِمَّنْ هَذَا حَالُهُ؛ إِذْ لا يَسْلَمُ مِنْهُ عَصْرٌ وَلا مِصْرٌ (٢)، وَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلاَّ وَقَدِ ابْتُلِيَ بِهَذَا الصِّنْفِ مِنَ النَّاسِ، إِلاَّ مَا نَدَرَ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَاصِفًا بَعْضَ مَنْ قَدِ ابْتُلِيَ بِهِمْ:

---

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٦٧).
(٢) المِصْرُ - بالكَسْرِ - البَلَد، والجَمْعُ: أَمْصَارٌ.



وَكَمْ مِنْ صَـديقٍ وُدُّهُ بِلِسَـانِهِ
خَئُونٌ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لا يَتَذَمَّمُ[1]
يُضَاحِكُنِي عَجَبًا إِذَا مَا لَقِيتُهُ
وَيُقْذِعُنِي[2] مِنْهُ- إِذَا غِبْتُ- أَسْهُمُ
كَذَلِكَ ذُو الْوَجْهَيْنِ يُرْضِيكَ شَاهِداً
وَفِي غَيْبِهِ إِنْ غَابَ صَابٌ[3] وَعَلْقَمُ[4]



(١) لا يَتَذَمَّمُ: لا يَسْتَنْكِفُ.
(٢) أَقْذَعَهُ: رَمَاهُ بالفُحْشِ وَسُوءِ القَوْل.
(٣) صَاب: شَجَرٌ مُرٌّ كالعَلْقَمِ، وَاحِدُهُ صَابَةٌ.
(٤) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٦٧).



٦ - الحَسَدُ

أَيْ بُنَيَّ، الحَاسَدُ لا يَكُنْ لَكَ صَاحِباً، فَهُوَ يَتَمَلَّقُ لَكَ عِنْدَ حُضُورِكَ، وَيَغْتَابُكَ فِي غَيْبَتِكَ، وَيَشْمَتُ عِنْدَ مُصِيبَتِكَ، ثَلاثُ خِصَالٍ اعْرَفْهُ بِهَا، وَدَلِيلُ مَا فِي قَلْبِهِ كَمِيْنٌ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيس لَكَ إِلَيْهِ ذَنْبٌ إِلاَّ دَوَامَ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ.

قَالَ الْعُتْبِيُّ:

أُفَكِّرُ مَا ذَنْبِي إِلَيْكَ فَلا أَرَىٰ
لِنَفْسِي جُرْمًا، غَيْرَ أَنَّكَ حَاسِدُ

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِيُّ:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
طُوِيَتْ، أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ



لَوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ
مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ
لَوْلا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ
لِلْحَاسِدِ النُّعْمَىٰ عَلَىٰ المَحْسُودِ

وَكُلُّ النَّاسِ قَدْ تُرْجَىٰ مَوَدَّتُهُمْ إِلاَّ الحَاسِدَ فَإِنَّهُ لا يَرْضَىٰ عَنْكَ ، حَتَّىٰ تَزُولَ نِعَمُ اللهِ عَلَيْكَ؛ فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ؛ فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْ نَفْسِهِ وَعَيْنِهِ لَيْسَ كَالَّذِي يُؤْذِيكَ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَحْمُودٌ الوَرَّاقُ حِينَ قَالَ :

أَعْطَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرِّضَا
إِلاَّ الحَسُودَ فَإِنَّهُ أَعْيَانِي
لا أَنَّ لِي ذَنْبًا لَدَيْهِ عَلِمْتُهُ
إِلاَّ تَظَاهُرَ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ
يَطْوِي عَلَىٰ حَنَقٍ حَشَاهُ لأَنْ رَأَىٰ
عِنْدِي كَمَالَ غِنيً وَفَضْلُ بَيَانِ



مَـا إِنْ أَرَىٰ يُرْضِـيْـهِ إِلاَّ ذِلَّتِي
وَذَهَابُ أَمْـوَالِي وَقَطْعُ لِسَـانِي

لا يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَالحَسَدُ:

وَالحَسَدُ مَتَىٰ حَلَّ فِي قَلْبِ عَبْدٍ، ارْتَحَلَ عَنْهُ الإِيمَانُ، وَأَيُّ عَبْدٍ ارْتَحَلَ عَنْ قَلْبِهِ الإِيمَانُ لا يُرْجَىٰ خَيْرُهُ، وَلا يُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَعَبْدٌ هَذَا حَالُهُ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُصَاحَبَ.

فَفِي «سُنَنِ النَّسَائِيِّ»[1] مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «**لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ، وَالحَسَدُ**».

وَقَدْ تَتَابَعَتْ تَحْذِيرَاتُ الْعُلَمَاءِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ مِنْ مُصَاحَبَةِ الحَاسِدِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ أَكْثَرَ مَا يُوجَدُ الحَسَدُ مِنَ الجِيرَانِ، وَالأَصْحَابِ، ثُمَّ مِنَ الأَقَارِبِ.

(١) حَسَنٌ، أَخْرَجَهُ النِّسَائِي (٣١١١)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صحيحه» (٤٦٠٦)، وَحَسَّنه الأَلْبَانيُّ فِي «صَحِيْح التَّرغِيب» (٢٨٨٦).



قَالَ ابْنُ حِبَّانَ - رَحِمَهُ اللهُ - : «أَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الحَسَدُ بَيْنَ الأَقْرَانِ[1]، أَوْ مِنْ تَقَارُبِ الشَّكْلِ[2]؛ لأَنَّ الكَتَبَةَ لا يَحْسُدُهَا إِلاَّ الكَتَبَةُ، كَمَا أَنَّ الحَجَبَةَ لا يَحْسُدُهَا إِلاَّ الحَجَبَةُ، وَلَنْ يَبْلُغَ المَرءُ مَرْتَبَةً مِنْ مَرَاتِبِ هَذِهِ الدُّنْيَا، إِلاَّ وَجَدَ مَنْ يُبْغِضُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَحْسُدُهُ فِيهَا، وَالحَاسِدُ خَصْمٌ مُعَانِدٌ، لا يَجِبُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَجْعَلَهُ حَكَمًا عِنْدَ نَائِبَةٍ تَحْدُثْ؛ فَإِنَّهُ إِنْ حَكَمَ لَمْ يَحْكُمْ إِلاَّ عَلَيْهِ، وَإِنْ قَصَدَ لَمْ يَقْصِدْ إِلاَّ لَهُ، وَإِنْ حَرَمَ لَمْ يَحْرِمْ إِلاَّ حَظَّهُ، وَإِنْ أَعْطَى أَعْطَى غَيْرَهُ، وَإِنْ قَعَدَ لَمْ يَقْعُدْ إِلاَّ عَنْهُ، وَإِنْ نَهَضَ لَمْ يَنْهَضْ إِلاَّ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ لِلْمَحْسُودِ عِنْدَهُ ذَنْبٌ إِلاَّ النِّعَمَ الَّتِي عِنْدَهُ.

فَلْيَحْذَرِ المَرْءُ مَا وَصَفْتُ مِنْ أَشْكَالِهِ، وَأَقْرَانِهِ، وَجِيرَانِهِ، وَبَنِي أَعْمَامِهِ»[3].

---

(١) الأَقْرَان: جَمْعُ قِرْنٍ - بالكَسْرِ -، وَهُوَ كُفُؤُكَ فِي الشَّجَاعَةِ، وَالعِلْمِ، وغَيْرِهِمَا.
(٢) الشَّكْل - بالفَتْحِ والكَسْرِ - المِثْل، والجَمْعُ أَشْكَالٌ وشُكُوكٌ.
(٣) «رَوْضَة العُقَلاءِ» (ص ١٠٨-١٠٩).



وَمِنْ دُرَرِ العَلاَّمَةِ ابْنِ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - قَوْلُهُ:

«الْعُزْلَةُ عَنِ الخَلْقِ سَبَبُ طِيبِ الْعَيْشِ، وَلاَبُدَّ مِنْ مُخَالَطَةٍ بِمِقْدَارٍ، فَدَارِ الْعَدُوَّ واسْتَحله[1]؛ فَرُبَّمَا كَادَكَ فَأَهْلَكَكَ، وأَحْسِنْ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، وَاسْتَعِنْ عَلَىٰ أُمُورِكَ بِالْكِتْمَانِ، وَلْتَكُنِ النَّاسُ عِنْدَكَ مَعَارِفَ، فَأَمَّا أَصْدِقَاءُ فَلا؛ لأَنَّ أَعَزَّ الأَشْيَاءِ وُجُودُ صَدِيقٍ، ذَاكَ أَنَّ الصَّدِيقَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي مَرْتَبَةٍ مُمَاثِلٍ.

فَإِنْ صَادَفْتَهُ عَامِيًّا لَمْ تَنْتَفِعْ بِهِ؛ لِسُوءِ أَخْلاقِهِ، وَقِلَّةِ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ، وَإِنْ صَادَفْتَ مُمَاثِلاً أَوْ مُقَارِبًا حَسَدَكَ.

وَإِذَا كَانَ لَكَ يَقَظَةٌ، تَلَمَّحْتَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حَسَدِكَ ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [مُحَمَّد: ٣٠].

وَإِذَا أَرَدْتَ تَأْكِيدَ ذَلِكَ ، فَضَعْ عَلَيْهِ مَنْ يَضَعُكَ عِنْدَهُ، فَلا يَخْرُجُ إِلَيْهِ إِلاَّ بِمَا فِي قَلْبِهِ.

(١) علَّها : استَمِلْهُ .



فَإِنْ أَرَدْتَ الْعَيْشَ فَابْعِدْ عَنِ الحَسُودِ؛ لأَنَّهُ يَرَىٰ نِعْمَتَكَ، فَرُبَّمَا أَصَابَهَا بِالْعَيْنِ.

فَإِنِ اضْطُرِرْتَ إِلَىٰ مُخَالَطَتِهِ، فَلا تُفْشِ إِلَيْهِ سِرَّكَ، وَلا تُشَاوِرْهُ، وَلا يَغُرَّنَّكَ تَمَلُّقُهُ لَكَ، وَلا مَا يُظْهِرُهُ مِنَ الدِّينِ وَالتَّعَبُّدِ؛ فَإِنَّ الحَسَدَ يَغْلِبُ الدِّينَ.

وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ قَابِيلَ أَخْرَجَهُ الحَسَدُ إِلَىٰ الْقَتْلِ، وَأَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ بَاعُوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ (١).

وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ الْعُقَلاءِ، وَعَبْدُ اللهِ ابْنُ أُبَيٍّ مِنَ الرُّؤَسَاءِ، أَخْرَجَهُمَا حَسَدُ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- إِلَىٰ النِّفَاقِ، وَتَرْكِ الصَّوَابِ.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ تَطْلُبَ لِحَاسِدِكَ عُقُوبَةً أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ مُتَّصِلٍ لا يُرْضِيهِ إِلاَّ زَوَالُ نِعْمَتِكَ.

(١) البَخْس: - بالفَتْح- النَّاقِص.



وَكُلَّمَا امْتَدَّتِ امْتَدَّ عَذَابُهُ، فَلا عَيْشَ لَهُ ، ومَا طَابَ عَيْشُ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلاَّ حِينَ نُزِعَ الحَسَدُ وَالْغِلُّ مِنْ صُدُورِهِمْ.

وَلَوْلا أَنَّهُ نُزِعَ تَحَاسَدُوا ، وَتَنَغَّصَ عَيْشُهُمْ»(١).

أَيْ بُنَيَّ، عَلَّنِي قَدْ أَطَلْتُ عَلَيْكَ؛ فَدَعْنِي أَخْلُصْ إِلَىٰ فَائِدَةٍ يَعِيهَا قَلْبُكَ: «الحَسَدُ مِنْ أَخْلاقِ اللِّئَامِ».

أَيْ بُنَيَّ، الحَسَدُ مِنْ أَخْلاقِ اللِّئَامِ، وَلا يَكُونُ إِلاَّ مِنْ مَهَانَةِ نَفْسٍ ، وَسُوءِ طَبْعٍ.

وَهُوَ - أَيْضًا - مِنْ أَخْلاقِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فِيهِمْ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾ [آل عمران: ١٢٠].

---

(١) «صَيْدُ الخَاطِرِ» (ص٣٦٧).



التَّخَلُّصُ مِنْ صُحْبَةِ الحَاسِدِ:

عَلَيْكَ - يَا بُنَيَّ - بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ أَذْكَارِ طَرَفَيِ النَّهَارِ، بِمَا فِي ذَلِكَ المَعُوِّذَتَان، وَفِرَّ مِنْ صَاحِبٍ هَذَا حَالُهُ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ، وَلا يَضُرُّكَ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَقَدْ قَالَ عِمَارَةُ بْنُ عَقِيلٍ:

مَا ضَرَّنِي حَسَدُ اللِّئَامِ وَلَمْ يَزَلْ

ذُو الْفَضَلِ يَحسُدُهُ ذَوُو النُّقْصَانِ

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلُ ابْنُ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - فِيمَا نَحْنُ نُدَنْدِنُ حَوْلَهُ:

«رَأَيْتُ كِلابَ الصَّيْدِ إِذَا مَرَّتْ بِكِلابِ المَحَلَّةِ[1] نَبَحَتْهَا، وَبَالَغَتْ وَأَسْرَعَتْ خَلْفَهَا، وَكَأَنَّهَا تَرَاهَا مُكَرَّمَةً

(١) المَحَلَّة : المَنْزِل .



مُجَلَّلَةً ، فَتَحْسُدُهَا عَلَىٰ ذَلِكَ .

وَرَأَيْتُ كِلابَ الصَّيْدِ حِينَئِذٍ لا تَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، وَلا تُعِيرُهَا الطَّرْفَ ، وَلا تَعِدُّ نُبَاحَهَا شَيْئًا ، فَرَأَيْتُ أَنَّ كِلابَ الصَّيْدِ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الْكِلابِ ؛ لأَنَّ تِلْكَ غَلِيظَةُ الْبَدَنِ ، كَثِيفَةُ الأَعْضَاءِ ، لا أَمَانَةَ لَهَا ، وَهَذِهِ لَطِيفَةٌ دَقِيقَةُ الخِلْقَةِ ، وَمَعَهَا آدَابٌ قَدْ نَاسَبَتْ خِلْقَتَهَا اللَّطِيفَةَ ، وَإِنَّهَا تَحْبِسُ الصَّيْدَ عَلَىٰ مَالِكِهَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ ، أَوْ مُرَاعَاةَ شُكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهَا ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الأَدَبَ وَحُسْنَ الْعِشْرَةِ تَتْبَعُ لَطَافَةَ الْبَدَنِ ، وَصَفَاءَ الرُّوحِ ، وَهَكَذَا الْمُؤْمِنُ الْعَاقِلُ لا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ حَاسِدِهِ ، وَلا يَعُدُّهُ شَيْئًا ؛ إِذْ هُوَ فِي وَادٍ ، وَذَاكَ فِي وَادٍ ، ذَاكَ يَحْسُدُهُ عَلَىٰ الدُّنْيَا ، وَهَذَا هِمَّتُهُ الآخِرَةُ ، فَيَا بُعْدَ مَا بَيْنَ الوَادِيَيْنِ! » [1] .

---

(١) «صَيْدُ الخَاطِرِ» (٣٥٦ ، ٣٥٧) .



٧ - الكَــذِبُ

أَيْ بُنَيَّ، الكَذَّابُ لا يكُنْ لَكَ صَاحِبًا، وَكَيْفَ تُصَاحِبُ مَنْ مَلَّهُ الْعُقَلاءُ، وَزَهَدَ فيهِ كُلُّ ذي لُبٍّ، وَمَلَّهُ حَتَّىٰ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ ؟! ؛ لأَنَّ «مَنِ اسْتَحْلَىٰ رِضَاعَ الكَذِبِ عَسُرَ فِطَامُهُ»(١).

وَ«لا يَلْزَمُ الكَذَّابُ شَيءٌ إِلاَّ غَلَبَ عَلَيْهِ»(٢).

وَ«مَنْ قَلَّ صِدْقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ»(٣).

وَالنَّبِيُّ - ﷺ - يَقُولُ: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ،**

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٩٢).
(٢) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٩٢).
(٣) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٨٩).



وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا »[1].

وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ، فَقَدْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ؛ لأَنَّهُ قَدْ قِيلَ: « إِنَّمَا يَكْذِبُ الْكَاذِبُ مِنْ مَهَانَةِ نَفْسٍ »[2].

وَقَالَ الجَاحِظُ: « لَمْ يَكْذِبْ أَحَدٌ - قَطْ - إِلاَّ لِصِغَرِ قَدْرِ نَفْسِهِ عِنْدَهُ »[3].

وَلَقَدْ أَحْسَنَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّسِ حِينَ قَالَ:

وَدَعِ الكَذُوبَ، وَلا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا
إِنَّ الكَذُوبَ لَبِئْسَ خِلاًّ[4] يُصْحَبُ[5]

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٠٩٤)، ومُسلم (٢٦٠٧)، مِنْ حَدِيْث عَبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - .
(٢) « رَوْضَة العُقَلاء » (ص٧٨).
(٣) « أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين » (ص٢٩٢).
(٤) الخِلُّ -بالكَسْرِ والضَّمِّ - : الصَّدِيْق المُخْتَصُّ ، والجَمْعُ أخْلال .
(٥) انظر « جَوَاهِر الأَدَب » لأَحْمَد الهَاشِمِيّ (ص٦٦٩) .



٨ - الرَّغْبَةُ فِيمَا لا يَمْلِكُ

الْمُرْتَغِبُ - يَا بُنَيَّ - هُوَ الرَّاغِبُ إِلَىٰ غَيْرِ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ هُنَا مَنْ قَصَرَ هِمَّتَهُ عَلَىٰ مُلاحَقَةِ النِّسَاءِ، فَهَذَا صُحْبَةُ الْكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ عِشْرَتِه[١]؛ إِذْ لَيْسَ لَهُ حُرْمَةٌ، وَلا مُرُوءَةٌ وَلا أَدَبٌ، فَهُوَ سَاقِطُ الْقَدْرِ، دَنِيءُ الهِمَّةِ، رَقِيقُ الدِّينِ، لا يَقْنَعُ بِمَا عِنْدَهُ، وَلا يَطِيبُ عَيْشُهُ إِلاَّ بِالتَّطَلُّعِ إِلَىٰ مَا فِي رِحَالِ غَيْرِهِ، كَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ - وَقَدْ سُئِلَ: مَا أَطْيَبُ الْعَيْشِ؟ - قَالَ: بَيْضَاءُ رُعْبُوبَة[٢]، بِالطِّيبِ مَشْبُوبَةٌ[٣]، بِالشَّحْمِ مَكْرُوبَةٌ[٤].

وَمِثْلُ هَذَا الصِّنْفِ لا يَنْفَعُ مَعَهُ لَوْمَةُ لائِمٍ، كَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ:

---

(١) لا تَظُنَّ - يا بُنَيَّ - أَنِّي قَدْ بَالَغتُ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: «كَلْبٌ سَاخِرٌ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ غَادِر» وَأَيُّ غَدْرٍ أَعظَمُ مِنَ الرَّاغِبِ إِلَىٰ مَا فِي رَحْلِ غَيْرِهِ؟!.

(٢) **الرُّعْبُوبَة**: النَّاعِمَة.

(٣) **شَبَّهَا الطِّيبُ**: زَادَ فِي حُسْنِهَا .

(٤) **المَكْرُوبَة**: الشَّدِيْدَة الخَلْقِ وَالقُوَىٰ .



أَجِـدُ المَلامَـةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً

حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ[1]

وَقَالَ آخَرُ:

عَذْلُ الْعَوَاذِلِ حَوْلَ قَلْبِي التَّائِه

وَهُوَىٰ الأَحِبَّة فِيهِ مِنْ سَوْدَائِه[2][3]

وَهَذَا - يَا بُنَيَّ - غَايَةُ السَّفَهِ ، كَمَا قِيلَ :

أَرَىٰ سَفَهًا لِلْمَرْءِ تَعْلِيقَ قَلْبِه

بِغَانِيَةٍ[4] خَوْدٍ[5] مَتَىٰ تَدْنُ تَبْعُدِ[6]

---

(١) البَيت لأَبي الشِّيص، انظر «الزَّهَرَة» لأَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الأَصبَهَانِيِّ، تَحْقِيقُ الدُّكتور / إبرَاهِيمَ السَّامرائِيِّ.

(٢) سَوْدَاءُ القَلْبِ : حَبَّتُهُ .

(٣) «دِيوانُ المُتَنبِّي» بشرح العُكْبَرِيِّ (١ / ١).

(٤) الغَانِيَة : المُسْتَغْنِية بحُسْنِها عَنِ الزِّينَة ، وَالجَمْعُ غَوَانٍ .

(٥) الخَوْد -بالفَتْحِ- الشَّابَةَ الحَسَنَةُ الخَلْق النَّاعِمَةُ والجَمْعُ خَوْدَاتٌ وَخُودٌ.

(٦) «دِيوانُ الأَعشَىٰ» (ص٤٧).



أَلا قَبَّحَ اللهُ نَفْسًا تَتَحَرَّىٰ الْعِزَّ فِيمَا يُذِلُّهَا!، أَمَا كَانَ فِيهِم نَفْسٌ تَسْمُو إِلَىٰ مَعَالِي الأُمُورِ كَنَفْسِ أَبِي عَلِيٍّ الشِّبْلِ، حَيْثُ يَقُولُ - مُفْتَخِرًا بِنَفْسِهِ -:

وَآنَفُ أَنْ تَعْتَاقَ قَلْبِي خَرِيدَةٌ
بِلَحْظٍ ،وَأَنْ يَرْوِيَ صَدَايَ(١) رُضَابُ(٢)

وَلِلْقَلْبِ مِنِّي زَاجِرٌ عَنْ مُرُوءَةٍ
يُجَنِّبُهُ طُرُقَ الْهَوَىٰ فَيُجَابُ(٣)

وَالنَّاسُ - يَا بُنَيَّ - يَتَفَاوَتُونَ، فَمِنْهُمُ الذَّكِيُّ الَّذِي يَسْتَخْدِمُ ذَكَاءَهُ فِيمَا يَضُرُّهُ، فَيُسَدِّدُ بِهِ سَهْمَهُ، فَيُصِيبُ مَقْتَلاً دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ ، وَرُبَّمَا لا يَعْرِفُ هَذَا اللِّصَّ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَقَعَ الْفَأْسُ عَلَىٰ الرَّأْسِ(٤).

(١) الصَّدَىٰ: العَطَش، وَبَابُهُ عَمِيَ .
(٣) الرُّضَاب: بزنَة الغُرَاب : الرِّيقُ المَمْصُوصُ المَرْشُوفُ .
(٣) «ذمّ الهوَىٰ» (ص٤٨٠).
(٤) لا يَحْسَبْ هؤلاء أَنَّ نُفُوسَهُمْ قَدْ نَجَتْ ، فَقَدْ اقتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنَّ لِكُلِّ بَاطِحٍ مِنَ النَّاسِ يَوْمًا يَلُوحُ ، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي يَقُولُ:
لا تَحْسَبَنَّ إِمهَالَهَا إِهمَالَهَا ... غَرَّهَا إِمهَالُ خَالِقِهَا لَهَا

يَا رَامِيًا بِسِهَامِ اللَّحْظِ مُجْتَهِدًا
أَنْتَ الْقَتِيلُ بِمَا تَرْمِي فَلا تُصِبِ
وَبَاعِثَ الطَّرْفِ يَرْتَادُ الشِّفَاءَ لَهُ
طَوِّقْهُ؛ إِنَّهُ يَأْتِيكَ بِالْعَطَبِ(١)

وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْمَاهُ هَوَاهُ ، فَلا يُبَالِي بِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ النَّاسِ، كَمَا قِيلَ: حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ، كَحَالِ بَعْضِهِمْ وَقَدِ اسْتُنْفِرَ لِلْجِهَادِ، فَكَانَ جَوَابُهُ:

يَقُولُونَ جَاهِدْ -يَا جَمِيلُ- بِغَزْوَةٍ
وَأَيُّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ
وَكُلُّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ(٢)

وَأَيُّ شَابٍّ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ - يَا بُنَيَّ - عَمَرَ مَجْلِسًا

(١) انظر «فِتْنَةُ النَّظَر» لراقمه (ص٧٤).
(٢) انظر «ذَمُّ الهَوَىٰ» (ص٤٧٣).



عَفِيفًا كَالنَّارِ صَادَفَ هَشِيمًا؛ لأَنَّ النُّفُوسَ جُبِلَتْ عَلَىٰ حُبِّ النِّسَاءِ، كَمَا قِيلَ:

إِنَّ النِّسَاءَ رَيَاحِينُ خُلِقْنَ لَكُمْ
وَكُلُّكُمْ يَشْتَهِي شَمَّ الرَّيَاحِينِ

وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ، لَمْ يَكَدْ يَسْلَمُ مِنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ، وَأَنْتَ - يَا بُنَيَّ - فِيمَا نَحْسَبُكَ - لَكَ أَنَفَةٌ مِنَ الرَّذَائِلِ، وَهِمَّةٌ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ.

خُلِقْتُ أَبِيَّ النَّفْسِ لا أَتَّبِعُ الْهَوَىٰ
وَلا أَسْتَقِي إِلاَّ مِنَ المَشْرَبِ الأَصْفَىٰ
وَلا أَحْمِلُ الأَثْقَالَ فِي طَلَبِ الْعُلا
وَلا أَبْتَغِي مَعْرُوفَ مَنْ سَامَنِي خَسْفا(١)
وَلا أَتَحَرَّىٰ الْعِزَّ فِيمَا يُذِلُّنِي
وَلا أَخْطُبُ الأَعْمَالَ كَي لا أَرَىٰ صَرْفا

(١) يُقَالُ: سَامه خَسْفًا - بِفَتْحِ الخَاء وَضَمِّهَا- إِذَا أَوْلاهُ ذُلاًّ.



وَلَسْتُ عَلَىٰ طَبْعِ الذُّبَابِ مَتَىٰ يُذَدْ

عَنِ الشَّيْءِ يَسْقُطْ وَهْوَ يَرَىٰ الحَتْفَا[١]

وَهَذَا هُوَ الظَّنُّ بِكَ –يَا بُنَيَّ–،لَكِنْ قَدْ قِيلَ:مَنْ جَالَسَ جَانَسَ، وَقِيلَ: الصَّاحِبُ ساحِبٌ، والنِّسَاءُ الْعَاقِلاتُ لا تَسْمُو نُفُوسُهُنَّ وَتَعْلُو هِمَّتُهُنَّ إِلاَّ لِمِثْلِ الَّذِي يَقُولُ:

لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَوَاهُ خَرِيدَةٌ[٢]

وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقضِي عَلَيْهِ كَعَابُ[٣]

وَلَكِنَّنِي – وَالحَمْدُ للهِ – حَازِمٌ

أَعِــــزُّ إِذَ ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَــــابُ

وَلا تَمْلِكُ الحَسْنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ

وَلَوْ شَــمَلَتْنَا رِقَّــةٌ وَشَــبَــابُ

---

(١) «الشعر» لأَبِي مَنْصُور الهَرَوي كَمَا في «ذَمِّ الهَوَىٰ» (ص٤٨٠).

(٢) الخَرِيْدَة: البِكْرُ لَمْ تُمْسَسْ، والجَمْعُ خَرَائِدُ، وَخُرُدٌ، وَخُرَّدٌ.

(٣) كَعَاب – بزِنَةِ سَحَابٍ – الَّتي نَهَدَ ثَدْيُهَا وَارتَفَع.



وَأَجْرِي وَلا أُعْطِي الهَوَىٰ فَضْلَ مِقْوَدِي

وَأَهْفُو وَلا يَخْفَىٰ عَلَيَّ صَوَابُ[1]

وَهَذَا صَحِيحٌ – يَا بُنَيَّ – ؛ لأَنَّ الدُّرَّ كُلَّمَا كَانَ عَزِيزًا كَانَ نَفِيسًا، وَلا عِبْرَةَ بِمَنْ هُنَّ عَلَىٰ طَبْعِ الذُّبَابِ.

﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤].

وَالْعَاقِلُ إِذَا قَنِعَ بِمَا عِنْدَهُ ،جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا الْبَرَكَةَ، وَوَجَدَ لَهَا لَذَّةً تُسَاوِي الدُّنْيَا، وَإِلاَّ فَالصَّوْمُ لَهُ وِجَاءٌ.

قَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: «اعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَوْقَعِ الأُمُورِ فِي الدِّينِ، وَأَنْهَكِهَا لِلْجَسَدِ، وَأَتْلَفِهَا لِلْمَالِ، وَأَقْتَلِهَا لِلْعَقْلِ، وَأَزْرَاهَا لِلْمُرُوءَةِ ، وَأَسْرَعِهَا فِي ذَهَابِ الْجَلالَةِ وَالْوَقَارِ – الْغَرَامُ بِالنِّسَاءِ.

وَمِنَ الْبَلاءِ عَلَىٰ الْمُغْرَمِ بِهِنَّ أَنَّهُ لا يَنْفَكُّ يَأْجَمُ[2] مَا

---

(١) الشعر لأبي فراس الحَمْدانيِّ كَمَا فِي « دِيوَانِهِ » (ص١٣).

(٢) يَأْجَمُ: يَكْرَهُ وَيَمَلُّ ، وَبَابُهُ ضَرَبَ وَفَرِحَ .

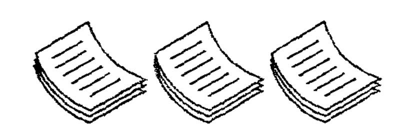


عِنْدَهُ، وَتَطْمَعُ عَيْنَاهُ إِلَىٰ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ، وَإِنَّمَا النِّسَاءُ أَشْبَاهٌ.

وَمَا يَتَزَيَّنُ فِي الْعُيُونِ وَالْقُلُوبِ مِنْ فَضْلِ مَجْهُولاتٍ عَلَىٰ مَعْرُوفَاتٍ- بَاطِلٌ وَخُدْعَةٌ، بَلْ كَثِيرٌ مِمَّا يَرْغَبُ عَنْهُ الرَّاغِبُ مِمَّا عِنْدَهُ أَفْضَلُ مِمَّا تَتُوقُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْهُنَّ.

وَإِنَّمَا الْمُرْتَغِبُ عَمَّا فِي رَحْلِهِ مِنْهُنَّ إِلَىٰ مَا فِي رِحَالِ النَّاسِ -كَالْمُرْتَغِبِ عَنِ طَعَامِ بَيْتِهِ إِلَىٰ مَا فِي بُيُوتِ النَّاسِ.

بَلِ النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ أَشْبَهُ مِنَ الطَّعَامِ بِالطَّعَامِ، وَمَا فِي رِحَالِ النَّاسِ مِنَ الأَطْعِمَةِ أَشَدُّ تَفَاضُلاً وَتَفَاوُتًا مِمَّا فِي رِحَالِهِمْ مِنَ النِّسَاءِ»[1].



(١) «الأَدَبُ الصَّغِيرُ والأَدَبُ الكَبِيرُ» لابْنِ الْمُقَفَّعِ (ص ١٤٩، ١٥٠).



٩ - دُنُوُّ الهِمَّة

دَنِيءُ الهِمَّةِ لا يُصَاحَبُ، وَلا يُسَايَرُ، وَلا يُسَارَرُ، وكَيْفَ يُصَاحَبُ مَنْ تَحُومُ نَفْسُهُ حَوْلَ الدَّنَاءَاتِ، وَالإِخْلادِ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَالمَيْلِ إِلَىٰ الرَّاحَةِ وَالدَّعَةِ، وَمُحَقَّرَاتِ الأُمُورِ؟!، فَلَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ سِوَىٰ مُلاحَقَةِ النِّسَاءِ فِي الأَسْوَاقِ والطُّرُقَاتِ، وَمُتَابَعَةِ المُوضَةِ ، وَمُجَالَسَةِ السَّاقِطِينَ، فَلَوْ أَعَرْتَهُ سَمْعَكَ لَقُلْتَ هَذَا حَيَوَانٌ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، وَلَيْسَ لِجَرْحِ المَيِّتِ إِيلامٌ، وَلَعَلَّكَ -يَا بُنَيَّ- قَدْ رَأَيْتَ أُنَاسًا كَانُوا نَابِهِينَ، وَلَهُمْ حَسَبٌ، تَحْسُبُ لَهُمْ، لَكِنْ لَمَّا صَاحَبُوا السَّاقِطِينَ سَقَطُوا ، وَهَانَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ، فَهَانُوا عَلَىٰ أَهْلِيهِمْ، أَلا قَبَّحَ اللهُ هِمَّةً هَذَا حَالُهَا! .

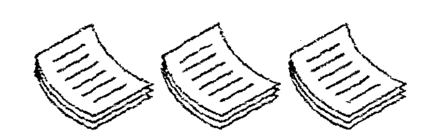


قَـبَّحَ اللهُ هِـمَّـةً تَتَـسَـامَىٰ

عَنْ كِبَارِ الأَقْدَارِ دُونَ الصِّغَارِ

هِيَ أَهْلٌ لما عَـرَاها (١) مِنَ الذُّلْ

لِ وَمَا مَسَّهَا مِنْ الاحْتِقَارِ(٢)



(١) عَرَاهَا : غَشِيَهَا وَأَصَابَهَا ، وَبَابُهُ عَدَا .

(٢) «دِيوان الشَّوْكَانِيّ» (ص١٩٥) .



١٠ - الْكَسَلُ

أَيْ بُنَيَّ، الْكَسُولُ لا يُصَاحَبُ؛ لأَنَّ صُحْبَتَهُ طَرِيقٌ إِلَىٰ مَوْتِ الْهِمَمِ، وسُقُوطِ الْمَنْزِلَةِ، وَضَعْفِ الشَّخْصِيَّةِ.

وَيُعَرَّفُ الْكَسُولُ بِأَنَّهُ: الَّذِي يَتَغَافَلُ عَمَّا لا يَنْبَغِي التَّغَافُلُ عَنْهُ[١]، وَيَتَثَاقَلُ عَمَّا لا يَنْبَغِي التَّثَاقُلُ عَنْهُ، وَيَقْعُدُ عَنْ إِتْمَامِهِ[٢]؛ وَلِهَذَا عُدَّ مِنَ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَصَارَ مِنْ جِنْسِ الْمَوْتَىٰ، وَمَنْ تَعَوَّدَ الْكَسَلَ، وَمَالَ إِلَىٰ الرَّاحَةِ، فَقَدَ الرَّاحَةَ[٣].

فَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ لا يَقُومُونَ إِلَىٰ الصَّلاةِ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ، وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَىٰ الْجِهَادِ، خِلْتَهُمْ جُثَثًا هَامِدَةً، أَتَتْ عَلَىٰ مَوْتِهَا سِنُونَ.

---

(١) «التَّوقيف علىٰ مهمات التَّعاريف» (ص٢٨١).

(٢) «مَقَايِيسُ اللُّغَة» (٥/ ١٧٨).

(٣) «الذَّرِيعَةُ إِلىٰ مَكَارِمِ الشريعَة» (ص٣٨٤).



فَهُو شَرٌّ اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ - ﷺ - (١)؛ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِمَّا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ، وَفِرَّ مِنَ الْكَسُولِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ.

لا تَصْحَبِ الْكَسْلانَ فِي حَاجَاتِهِ

كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ

عَدْوَىٰ الْبَلِيدِ إِلَىٰ الجَلِيدِ سَرِيعَةٌ

وَالجَمْرُ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ(٢)



(١) رَوَاهُ مُسلِمٌ (٢٧٢٢).
(٢) البَيتَان لأَبِي بَكْرٍ الخُوَارَزْمِيِّ كَمَا فِي «يَتِيمَةُ الدَّهر» (٤ / ٢٤٠).



الأُلْفَةُ

أ - الأُلْفَةُ قَاعِدَةٌ ذَهَبِيَّةٌ فِي مَعْرِفَةِ الصَّاحِبِ:

أَيْ بُنَيَّ، الأُلْفَةُ مِنَ الْقَوَاعِدِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي قَعَّدَهَا السَّلَفُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا الكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْفِطْرَةُ.

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[١] عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ**

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٣٣٦) - واللفظ لَهُ -، وَمُسْلِمٌ (٢٦٣٨) مِن رِوَايَة أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -.



مُجَنَّدَةٌ[1] ، **فَمَا تَعَارَفَ**[2] **مِنْهَا ائْتَلَفَ**[3] ، **وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**[4]» .

قَالَ الحَافِظُ - رَحِمَهُ اللهُ -: «قَالَ الخَطَّابِيُّ: يُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَىٰ مَعْنَىٰ التَّشَاكُلِ فِي الخَيْرِ والشَّرِّ، والصَّلاحِ والفَسَادِ، وَأَنَّ الخَيِّرَ مِنَ النَّاسِ يَحِنُّ[5] إِلَىٰ شَكْلِهِ، والشِّرِّيرُ نَظِيرُ ذَلِكَ ، يَمِيلُ إِلَىٰ نَظِيرِهِ؛ فَتَعَارُفُ الأَرْوَاحِ يَقَعُ بِحَسْبِ الطِّبَاعِ الَّتِي جُبِلَتْ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَإِذَا اتَّفَقَتْ تَعَارَفَتْ، وإِذَا اخْتَلَفَتْ تَنَاكَرَتْ .

قُلْتُ - أَيِ : ابْنُ حَجَرٍ - : وَلا يُنْكَرُ عَلَيْهِ أنَّ بَعْضَ المُتَنَافِرِينَ رُبَّمَا ائْتَلَفَا؛ لأَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ مَبْدَإِ التَّلاقِي،

---

(١) **جنودٌ مُجنَّدَةٌ**: جُمُوعٌ مُجَمَّعَةٌ ، وَأَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ .
(٢) **تَعَارفُ**: تَوَافَقَتْ صِفَاتُهَا ، وَتَنَاسَبَتْ أَخْلاقُهَا .
(٣) **ائْتَلَفَ**: مِنَ الأُلْفَةِ ، وَهِيَ المَحَبَّةُ .
(٤) **اخْتَلَفَ**: تَبَاعَد .
(٥) **يَحِنُّ** : يَشْتَاقُ وَيَتُوقُ .



فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِأَصْلِ الخِلْقَةِ بِغَيْرِ سَبَبٍ، وَأَمَّا فِي ثَانِي الحَالِ فَيَكُونُ مُكْتَسَبًا؛ لِتَجَدُّدِ وَصْفٍ يَقْتَضِي الأُلْفَةَ بَعْدَ النَّفْرَةِ: كَإِيمَانِ الكَافِرِ، وَإِحْسَانِ المُسِيْءِ»(١).

وَأَمَّا أَدِلَّةُ الْفِطْرَةِ عَلَىٰ الأُلْفَةِ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ؛ فَقَدْ تَوَاتَرَ ذَلِكَ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ يُضْرَبُ بِهَا المَثَلُ، فَمِنْ أَمْثَالِ العَامَّةِ:

«الْقُلُوبُ شَوَاهِدُ».

وَقَالَ رَجُلٌ لآخَرَ: إِنِّي أُحِبُّكَ. فَقَالَ: «رَائِدُ ذَلِكَ عِنْدِي»(٢).

أَيْ: أَنَّ الَّذِي عِنْدَكَ لِي مِثْلُ الَّذِي عِنْدِي لَكَ، كَمَا قَالَ بَكْرُ بْنُ النَّطَاحِ:

---

(١) «فَتْحُ البَارِي» (١٠/ ٤٢٦).
(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٥٢).



وَعَلَىٰ الْقُلُوبِ مِنَ الْقُلُوبِ دَلائِلٌ

بِالْودِّ قَبْلَ تَشَاهُدِ الأَرْوَاحِ(١)

وَقَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ: إِنَّ فُلانًا يَقُولُ: إِنَّهُ يُحِبُّنِي، فَبِمَاذَا أَعْلَمُ صِدْقَهُ؟. قَالَ: «امْتَحِنْ قَلْبَهُ بِقَلْبِكَ، فَإِنْ كُنْتَ تَوَدُّهُ فَإِنَّهُ يَودُّكَ»(٢).

وَرَأَىٰ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - رَجُلاً، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا لَيُحِبُّنِي». قَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ؟!.

قَالَ: «إِنِّي لأُحِبُّهُ، وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»(٣).

---

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/٥٢).

(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/٥٢).

(٣) «رَوْضَةُ العُقَلاءِ» (ص١٨٠).



وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ الأَحْنَفِ:

قَلْبِي وَقَلْبُكَ بِدْعَةٌ(١) خُلِقَا

يَتَجَارَيَانِ بِصَادِقِ الْحُبِّ(٢)

ب - أُلْفَةُ الأَخْيَارِ:

أَيْ بُنَيَّ، إِذَا كَانَ الرَّجُلُ الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تَصْطَفِيَهُ لِنَفْسِكَ مُنَاسِبًا ، وَوَجَدْتَ بَيْنَكُمَا أُلْفَةً وَمُشَاكَلَةً، وَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَقَدَّمْتُ لَكَ بِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهَا، فَعَضَّ عَلَيْهِ بِنَوَاجِذِكَ ، وَشُدَّ عَلَيْهِ خَاصِرَتَكَ ، وَحَالُكَ :

فَقُلْتُ :أَخِي، قَالُوا :أَخٌ مِنْ قَرَابَةٍ

فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ الشُّكُولَ أَقَارِبُ

نَسِيبِي فِي رَأْسِي وَعَزْمِي وَهِمَّتِي

وَإِنْ فَرَّقَتْنَا فِي الأُصُولِ الْمَنَاسِبُ

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٥٣).
(٢) الْبِدْعَة -بِالْكَسْرِ-: الْغَايَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْغَايَةُ فِي الْحُبِّ.



جـ - أُلْفَةُ الأَشْرَارِ:

أَيْ بُنَيَّ مَتَىٰ وَجَدْتَ مِنْ نَفْسِكَ نَوْعَ أُلْفَةٍ لِلأَشْرَارِ الَّذِينَ تَقَدَّمْتُ لَكَ بِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ أَوْصَافِهِمْ- فَسَارِعْ لِلْبَحْثِ عَنِ الْمُقْتَضِي لِذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ وَحَاسِبْهَا، وَأَصْلِحْ حَالَكَ مَعَ اللهِ، يُصْلِحْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ عِبَادِهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - : «وَيُسْتَفَادُ مِنَ الحَدِيثِ [أَيْ: حَدِيثُ الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ..] أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ نَفْرَةً مِمَّنْ لَهُ فَضِيلَةٌ أَوْ صَلاحٌ- فَيَنْبَغِي أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْمُقْتَضِي لِذَلِكَ؛ لِيَسْعَىٰ فِي إِزَالَتِهِ، حَتَّىٰ يَتَخَلَّصَ مِنَ الوَصْفِ الْمَذْمُومِ، وَكَذَلِكَ القَوْلُ فِي عَكْسِهِ»(١).

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي قَرْيَتِكَ- أَوِ الْبِلادِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا-

---

(١) «فَتْحُ البَارِي» (٦ / ٣٧٠)، و«دَلِيلُ الفَالِحِين» (٢ / ٢٣٧).



خِلٌّ صَالِحٌ، فَإِنَّ لَكَ فِي الكُتُبِ [1] عِوَضًا عَنْ كُلِّ جَلِيسٍ.

قَالَ الخَطَّابِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - :

وَإِنِّي غَرِيبٌ بَيْنَ بُسْتٍ [2] وَأَهْلِهَا
وَإِنْ كَانَ فِيهَا أُسْرَتِي وَبِهَا أَهْلِي
وَمَا غُرْبَةُ الإِنْسَانِ فِي غُرْبَةِ النَّوَىٰ [3]
وَلَكِنَّهَا -وَاللهِ- فِي عَدَمِ الشَّكْلِ [4]

أَيْ بُنَيَّ قَدْ تَدْعُو الحَاجَةُ إِلَىٰ مُنَاسَبَةِ مَنْ لا يُنَاسَبُ كَسَفَرٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ نَحْوِهِمَا، وَهَذَا لا يَحْسُنُ ولا

---

(١) حَتَّىٰ الكُتُبُ تَحْتَاجُ لاخْتِبَارِ غَثِّهَا مِنْ سَمِينِهَا أَعْظَمَ مِنْ اخْتِبَارِ الصَّاحِبِ؛ فَإِنَّ صَحِيحَهَا بِسَقِيمِهَا مَعْجُونٌ، حَاشَا كِتَابَ اللهِ، وَمَا صَحَّ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - .

(٢) بُسْت - بِالضَّمِّ - : بَلَدٌ بِسجستَانَ

(٣) النَّوَىٰ - بِزِنَةِ الفَتَىٰ - : البُعْدُ والفِرَاقُ.

(٤) «فَرَائِدُ الخَرَائِدِ فِي الأَمْثَالِ» لِيُوسُفَ بْنِ طَاهِرٍ الخُوَيِّي (ص٣٩٤).



يَجْمُلُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: «المُنَاسَبَةُ تُورِثُ المُشَاكَلَةَ».

وَقِيلَ: «مَنْ جَالَسَ جَانَسَ».

فَحَذَارِ مِنْ هَذَا العِثَارِ؛ فَإِنَّ: «مِنَ الحَبَّةِ مَنْشَأَ الشَّجَرِ»، و«مَنْ بَاعَ عِرْضَهُ أَنْفَقَ».

وَلَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو الأَسْوَدِ الدُّؤَلِي حِينَ قَالَ:

يَزِينُ الْفَتَىٰ فِي قَوْمِهِ وَيَشِينُهُ
وَفِي غَيْرِهِمْ أَخْدَانُهُ[1] وَمَدَاخِلُهْ

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ
وَكُلُّ امْرِئٍ يَهْوَىٰ إِلَىٰ مَنْ يُشَاكِلُهْ

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ شَوْقِي:

تَجِدُ الْكُتُبَ فِي النَّقْدِ كَمَا
تَجِدُ الإِخْوَانَ صِدْقًا وَكِذَابا

(١) الأَخْدَان: الأَصْحَاب، واحدُهم: خِدْنٌ - بالكَسْرِ -.

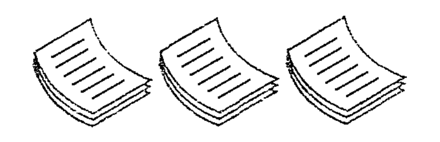


فَتَخَيَّرْهَا كَمَا تَخْتَارُهُ
وَادَّخِرْ فِي الصَّحْبِ وَالْكُتُبِ اللُّبَابَا[١]

صَالِحُ الإِخْوَانِ يُبْغِيكَ[٢] التُّقَىٰ
وَرَشِيدُ الكُتُبِ يُبْغِيكَ الصَّوَابَا[٣]

وَكَانَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ يَتَمَثَّلُ:

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ يَقَرُّ بِعَيْنِه
وَقُرَّةُ عَيْنِ الْفَسْلِ أَنْ يَصْحَبَ الْفَسْلا[٤]



---

(١) اللُّبَاب- بالضَّمِّ- الخَالص .
(٢) أَبْغَاهُ الشَّيْءَ : أَعَانَهُ عَلَىٰ طَلَبِهِ .
(٣) «الشّوقيَّات» (٢/ ١٧).
(٤) الغَسْل- بالفَتْحِ - الرَّذَائِلُ الَّذِي لا مُرُوءَةَ لَهُ .



خُطُورَةُ صَدِيقِ السَّوْءِ

أَيْ بُنَيَّ، بَعْدَ هَذَا التَّطْوَاف معَكَ، وبَعْدَ أَنْ عَلمْتَ خُطُورَةَ صَدِيقَ السَّوْءِ قَدْ تَتَعَجَّبُ، لَكنَّكَ سَوْفَ تَتَعَجّبُ أَكْثَرَ إِذا علمْتَ أَنَّ هُنَاكَ أُنَاسًا يَعْرِفُونَ صَدِيقَ السَّوْءِ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، لَكنَّهُمْ لا يُسَارِعُونَ إِلَىٰ التَّخَلُّص مِنْهُ، قَبْلَ أَنْ يَتَمَنَّىٰ أَحَدُهُمُ الخَلاصَ، ولاتَ حينَ مَنَاصٍ(1)، وَقَبْلَ أَنْ يكُونَ حَالُهُمْ كَمَا أَخْبَرَ ربُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (29) ﴾ [الفُرْقَان: 27 - 29].

وَلَعَلَّ عَدَمَ الشَّجَاعَةِ فِي سُرْعَةِ التَّخَلُّصِ مِنْهُ، وَالحَزْمِ فِي هَجْرِهِ - يَرْجِعُ إِلَىٰ عِدَّةِ أُمورٍ، مِنْهَا:

(1) المَنَاص: المَلْجَأ.



١ - قِلَّةُ الْعِلْمِ ،وَغَلَبَةُ الجَهْلِ، وَهَذَا مِنْ شَأْنِه أَنْ يُورِثَ صَاحِبَهُ قِلَّةَ التَّلَمُّحِ لِلْعَوَاقِب، وَعِلاجُ ذَلِكَ بِطَلَب الْعِلْمِ عِنْدَ أَهْلِه، وَمَنْ عَجزَ عَنْ ذَلِكَ فَعَلَيْه بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ وَاسْتِشَارَتِهِمْ؛ فَإِنَّ فِي سُؤَالِهِمُ الْبَرَكَةَ، وَفِي اسْتِشَارَتِهِمْ سَدَادُ الرَّأْيِ الَّذِي يُحْمَدُ مَعَهُ الْفِعْلُ.

٢ - ضَعْفُ الشَّخْصِيَّة ، وَضَعْفُ الشَّخْصِيَّة مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُورِثَ صَاحِبَهَا الحِيرَةَ، وَالتَّرَدُّدَ، وَالخَوَرَ، وَالجُبْنَ، وَالْعَجْزَ، وَعِلاجُهَا بِالتَّوكُّلِ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوكُّلِه، وَمُجَالَسَةِ النُّبَلاءِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا.

٣ - الخِذْلانُ بِسَبَبِ ذُنُوبٍ سَالِفَة، وَالخِذْلانُ مِنْ شَأْنِه أَنْ يُورِثَ صَاحِبَهُ رُؤْيَةَ الأُمُورِ عَلَىٰ غَيْرِ حَقِيقَتِهَا، فَيَرَىٰ الْبَاطِلَ حَقًّا، وَالحَقَّ بَاطِلاً، وَالصَّدِيقَ عَدُوًّا، وَالعَدُوَّ صَدِيقًا، وَهَكَذَا، وَعِلاجُهُ بِالتَّوْبَةِ، وَرَدِّ المَظَالِمِ إِلَىٰ أَهْلِهَا.

وَلا إِخَالُكَ - يَا بُنَيَّ - إِلاَّ كَالشُّعْلَةِ فِي النَّارِ،

يُصَوِّبُهَا (١) صَاحِبُهَا ، وَتَأْبَىٰ إِلاَّ ارْتِفَاعًا ، وَحَالُكَ:

وَلِي نَفْسٌ تُنَازِعُنِي إِذَا مَا
أَقُولُ لَهَا : لَعَلِّي أوْ عَسَانِي

لَكِنْ - يَا بُنَيَّ - الحَيُّ لا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أَلَيْس إِمَامُ الدُّنْيَا فِي عَصْرِهِ اسْتَنْزَلَهُ سَمْتِيتٌ (٢)، وَالسُّنِّيُّ الكَبِيرُ وَالأَدِيبُ الخَطِيرُ غَرَّتْه غَادَةٌ ؟! (٣).

(١) يُصَوِّبُهَا: يَخْفِضُهَا .

(٢) جَاءَ فِي تَرْجَمَةِ جعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ الضُّبَعِيِّ فِي «تَهذِيْب الكَمَال» (٥ / ٤٧): قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي عُثْمَانَ الطَيَالسِيُّ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ مَعِينٍ: سَمِعْتُ من عَبْد الرَّزَّاق (أَي: الإِمَامِ المُحَدِّث شَيْخِ الشُّيُوخِ عَبْد الرَّزَّاقِ بْنِ هَمَّامِ الصَّنْعَانِيِّ) كَلاَمًا يَوْمًا فَاستَدْلَلْتُ به عَلَىٰ مَا ذُكِرَ عَنْهُ مِنَ المَذهَبِ، فَقُلتُ : إِنَّ أُسْتَاذِيْكَ الَّذِين أَخَذْتَ عَنْهُمْ ثِقَاتٌ، كُلُّهُم أَصْحَابُ سُنَّة: مَعْمَرٌ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وابْنُ جُرَيْجٍ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَالأَوْزَاعِيُّ، فَعَمَّنْ أَخَذْتَ هَذَا المَذْهَبَ؟ .
فَقَالَ: قَدِمَ عَلَيْنا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ الضُّبَعِيُّ ، فرأَيْتُهُ فَاضِلاً حَسَنَ الهَدْيِ، فَأَخذتُ هَذَا عَنْهُ» اهـ.

(٣) جَاءَ فِي تَرْجَمَةِ عِمْرَانَ بْنِ خَطَّانَ فِي «السِّيَر» (٤ / ٢١٤): حَدَّثَ سَلَمَةُ بْنُ عَلْقَمَةَ عَنِ ابْنِ سِيرِيْنَ، قَالَ: تَزَوَّجَ عِمْرَانُ خَارِجِيَّةً، فَقَالَ: سَأَرُدُّهَا، قَالَ: فَصَرَفَتْهُ إِلَىٰ مَذْهَبِهَا.



وَلَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي يَقُولُ:

وَلا يَنْفَعُ الجَرْبَاءَ قُرْبُ صَحِيحَةٍ
إِلَيْهَا ، وَلَكِنَّ الصَّحِيحَةَ تَجْرَبُ

أَيْ بُنَيَّ، إِذَا رَأَيْتَ مِنْ صَاحِبِكَ نَوْعَ انْتِكَاسَةٍ بَعْدَ صَلاحٍ - فَعالِجْهُ قَبْلَ أَنْ يُعالِجَكَ، وَتَلْعَبَ بِكَ أَمْوَاجُهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لِعِلاجِكَ المسَاغَ فَاهْجُرْهُ، واقْطَعْ دابِرَهُ، واحْمَدِ اللهَ الَّذي عافَاكَ، وَمَتَىٰ رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ هَوَىً نَحْوَهُ، فَعَلِّقْ قَلْبَكَ بِاللهِ، يُعَوِّضْكَ عَنْ كُلِّ فَائِتٍ، وَأَخْلِصْ تَتَخَلَّصْ مِنْ مُؤْنَةِ النِّزَاعِ(١) ، وَحَالُكَ :

فَفِي النَّاسِ أَبْدَالٌ، وفِي التَّرْكِ رَاحَةٌ
وَفِي الْقَلْبِ صَبْرٌ لِلْحَبِيبِ وَلَوْ جَفَا

(١) قَالَ ابْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ - في «الفَوائد» (ص١٤٢): «إِنَّمَا يَجِدُ العَبْدُ المَشَقَّةَ فِي تَرْكِ المَأْلُوفَاتِ مِنْ تَرَكَهَا لِغَيْرِ اللهِ ، أَمَّا مَنْ تَرَكَهَا صَادِقًا مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِه ، فَإِنَّه لاَ يَجِدُ فِي تَرْكِهَا مَشَقَّةً إِلاَّ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ؛ لِيُمْتَحَنَ أَصَادِقٌ هُوَ فِي تَرْكِهَا أَمْ كَاذِبٌ ، فَإِنْ صَبَرَ عَلَىٰ تِلْكَ المَشَقَّةِ قَلِيلاً ، اسْتَحَالَتْ لَذَّةً» اهـ.



فهرس






رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من إصداراتنا
لأبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

* فن الحوار.
* التاج المفقود.
* طريقنا للقلوب.
* نعمة الأخوة.
* ملك القلوب.
* منتقى الأشعار.
* تسهيل البلاغة.
* منتقى الفوائد ١/٢.
* كيف تنال محبة الله.
* منتقى الأمثال .
* الخطاب البليغ في جماعة التبليغ.
* الصحيح من الأثر في خطب المنبر.
* حادي الصديق إلى بيت الله العتيق.
* الأخلاق بين الطبع والتطبع.
* المنتقى من الأحاديث القدسية .
* نزهة الأحباب شرح منظومة الاداب.
* تحفة الخطيب (أصول الخطابة - آدابها - صفات الخطيب).
* رسالة إلى ولدي.. من تصاحب؟ .
* صلاة المسلم فضائل وأحكام.
* تهذيب الآداب الشرعية .
* ظلمات الظلم .

التوزيع في القاهرة: العربية للتوزيع خلف الجامع الأزهر
شارع الإمام محمد عبده - أول درب الأتراك - ت: ٥١٢٠٦٢١ /٠٠٢٠٢

داركم المتميزة



